

مصطفى محمود

مغامرة في الصحراء



المكتب المصري الحديث

الجنة درجة حرارتها

٤٨

من نافذة الطائرة كانت تبدو الرمال المترامية بلا حدود تلمع في وهج الشمس كقميص من الذهب تغلو فيه التلال كنهود مكورة خمرية في رسم سريالي خرافي من تلك الرسوم التي يرسمها سلفادور دالي .

وكننت غارقا في أحلامي أتتبع هذه اللوحة الأسطورية حينما تيقظت على يد رفيق في الرحلة الأخ على المصراقي « الكاتب الليبي المعروف » .

وسمعه يقول بصوت قلق :

- هل أحضرت في حقبتك كل اللوازم ؟

قلت في اطمئنان :

- إن بها كل ما أحتاج إليه من هدم .

ورأيت ينفجر ضاحكاً :

- هدم ؟ !!! هذه الحقيبة المنفوخة كلها هدم .. (وراح يقهقه) ..

- هل تعرف أن درجة الحرارة في غدامس خمسون درجة في الظل .. هل

سمعت النشرة الجوية ؟

قلت وقد بدأت أتصيب عرقاً :

- يا لطيف !

وتذكرت درجة حرارة الأربعين في القاهرة وأنا أسير مغنى على وقلت وأنا
أرتجف :

- على أى حال لا بد أنى سأجد دشاً في الأوتيل .

- هناك أدشاش بعدد ما تريد ولكن المياه ملحة وتشقق الجلد :

- أعوذ بالله وهل سنشرب من هذه المياه الملحة .

- يمكنك أن تشرب مياه غازية ولو أنها مصنوعة من نفس المياه الملحة ..

على أى حال هى مياه ملحة مفيدة للصحة فيها حديد ونحاس وزئبق .

- وزئبق كمان .. هذا يعنى أننا سوف نموت بالتسمم

- سوف نتعود .

- الظاهر أننا سوف نتعود على أشياء كثيرة .

- ولكنك طبعاً أحضرت معك المصل .

- أى مصل ؟

وهنا قفز صديق من كرسيه في انزعاج !

- المصل المضاد للعقرب والثعبان .. هل نسيت ؟

والواقع أنى كنت قد نسيت تماماً ..

وقلت وأنا أحاول أن اطمئن نفسى :

- وهل هناك عقارب وثعابين ؟

- وغناكب وحيات .. نحن نازلون في قلب الصحراء الأفريقية .

- ولكننا سوف نسكن في أوتيل وننام في غرفة يمكن أن نقفل بابها وشباكها
علينا .

- ستنام في غرفة صحيح ولكنك لن تستطيع أن تقفل بابها من الحر إلا إذا
كنت تريد أن تموت مسلوفاً .

وراح يضرب كفا بكف :

- كيف تنسى احتياطاً طبيباً كهذا .. وأنا معتمد عليك باعتبارك طبيباً ؟

وارتفع أزيز الطائرة ذات المحرك الواحد وراحت ترتفع وتنخفض في
المطبات الساخنة كأنها ريشة في مهب الرياح وغرق المصراق في سكوت قلق .

قلت وأنا أحاول أن أتمس كلمة مطمئنة :

- ولكن هناك مستشفى على أى حال أو مركز إسعاف في حالة ما إذا ..

- هناك مركز إسعاف ولكن الحقن الموجودة .. تنفذ بسرعة لأن حوادث العقارب كثيرة جداً .. وتمر أيام قبل أن تصل شحنة جديدة من طرابلس بالطائرة .. وأنت تعلم أن لدغة العقرب تقتل في ظرف ساعات .
- أعوذ بالله .

قال في نبرة استسلام :

- نهايته .. الأعمار كتاب .. والحذر لا ينجى من قدر .. وإذا كان مكتوباً لنا الموت في غدامس سنموت في غدامس حتى ولو كان مركز الإسعاف كله في جيبنا .
وشعرت بأطرافى تتلج لهذه النبرة الجنائزية .. لم يبق إلا أن نحضر معنا الأكفان .. ونقرأ الشهادتين .. ويكتب كل منا وصيته .

وراحت الطائرة تهتز مرة أخرى وتسقط كأنها تهوى إلى قاع بئر ثم ترتفع وتترع أحشائى فى كل مرة .. ومال الأخ المصرافى على النافذة مشيراً بأصبعه :

- أترى هذه النقطة الخضراء ؟ هذه غدامس .. لؤلؤة الصحراء كما يسمونها .. فى هذه النقطة تاريخ أربعة آلاف سنة من الحضارة .

وأخذت الطائرة تدور مستعدة للهبوط .

وظهرت شوائى التخيل خضراء تلمع فى الشمس الغارية .

وسكت المحرك الواحد وبدأت الطائرة تهبط حتى استوت على الأرض فى نعومة ..

وهبطنا لتستقبلنا على الباب لفحة ساخنة .

وكان الترمومتر فى المطار يشير إلى درجة ٤٥ .. ولكن الحرارة كانت محتملة بسبب الجفاف الشديد .

وكان كل شئ جافاً نظيفاً ساخناً .. الأرض والجدران والمقاعد والأبواب .. ولكن الهواء كان صافياً نقياً معقياً كأنه خارج من أتوكلاف وكان يدخل الصدر فيغسله .

وشعرت بالانتعاش بالرغم من شدة الحر .

ولكنى كنت مازلت أفكر فى العقارب .

وحينما التقينا بمتصرف المنطقة الشيخ ونيس الدهمانى .. (المتصرف فى مقام المحافظ عندنا) .. كنت مازلت مشغولاً بحكاية العقارب .. وكنت أفكر فى الطريقة التى أسأله بها .

وأمسك بيدي يشد عليها فى حرارة :

- كيف الحال ؟ اتشا الله تكون مرتاح .. كيف الحال عندكو فى مصر ؟

ونظرت إلى الرجل المديد القامة .. كان وجهه الصريح وملائحه الحادة القوية والسمة النبيلة التى تكسو وجهه تحكى قصة كفاح طويلة مع الصحراء ومراس متصل مع المشتات .

وكانت عيناه تتدفقان طيبة وبساطة .

وقلت له إن الأحوال بخير فى مصر ودعوته لزيارتنا ولقضاء الشتاء على ضفاف النيل .

ولكنى كنت مازلت مشغولاً بحكاية العقارب .

ورأيتني أسأله فجأة عن العقارب .

وضحك الرجل ضحكة مججلة :

- العجارب .. العجارب ما بتعمل شئ .. الأولاد هنا بيجمعوا العجارب في طاسة ويلعبوا بها .. يبنشوا عليها في الصحرا .. فيه حد يخاف م العجارب .. انت خايف يا دكتور ؟

وقلت له وأنا أكذب بشدة :

- لا .. لا .. أبدا ..

وعدت أسأل على استحياء بعد لحظة صمت :

- لكن يعني .. فيه أظن مركز إسعاف في البلد .. وفيه مصل عقرب ..

- ما في حد بياخد المصل .. وحياناخذ المصل ليه .. العجارب ما بتعمل شئ ..

واعتبرت المسألة مثيية .. وأن العقارب ما بتعمل شئ ..

وقلت للأخ على متحديا :

- شايف يا على - العجارب ما بتعمل شئ ..

وضحك على ساخرا :

- طيب ما بتعمل شئ .. ما بتعمل شئ .. مبروك عليك عجارب غدامس .

وتطرق الحديث بعد ذلك إلى عديد من الموضوعات ثم خطر لي أن أسأل المتصرف في ناحية من نواحي اختصاصه فسألته عن إحصائية بالحوادث في غدامس في السنوات الأخيرة :

قال الرجل في استفهام :

- إحصائية بالحوادث .. كيف ؟

- يعني عدد الجرائم مثلا .. عدد الجنايات ..

- جرائم .. كيف ؟

- جرائم السرقة .. وجرائم القتل ..

وابتسم الرجل في طيبة :

- احنا ما عندنا جرائم ..

وفتح دفتر كبيراً راح يقلب صفحاته أمامي .. صفحات عديدة بيضاء .. استفسارات من الوزارة .. وردود عليها .. مشروع مساكن شعبية .. مذكرة بإنشاء ناد للشباب .. محضر صلح بين عائلتين .. مذكرة من الأهالي بطلب بناء خزان ماء للمسجد .. ولكن لا جريمة واحدة .. لا جريمة سرقة .. ولا جريمة قتل .. الأمن مستتب بطول السنوات العشر الماضية .

وأبدت دهشتي وقلت إن هذا شئ غير معقول .. ثم عدت أقول إن البوليس لابد أنه كف جداً .

وقال المتصرف :

- هذا بفضل السيد البدري ..

- قلت له إن السيد البدري هذا رجل عظيم الشأن جداً وأبدت رغبتي في زيارته وفي الطريق إلى السيد البدري كنت أقول لنفسى طول الوقت .. أخيراً وجدت الرجل الذى صنع المستحيل .. إنه ولاشك أعظم مأمور بوليس في الدنيا وفجأة توقف المتصرف وأشار بأصبعه إلى نافذة :

وفي حكاية أخرى أنها تفجرت تحت أقدام فرسة عقبة بن نافع .. كانت
الفرسة تنبش بحافرها وهي عطشى فتفجر الماء تحت أقدامها ومن هنا سميت
« عين الفرس » وهي حكاية مشكوك فيها لأن العين بدأت في الغالب مع مولد
الواحة ذاتها ولم تحيي متأخرة مع دخول الإسلام .

وهناك حكاية ثالثة تروى أن قافلة من البدو الرحل تذكروا بعد أن أوغلوا
في الصحراء أنهم نسوا قطعة طعامهم في المكان الذي تغدوا فيه أمس وعادوا
أدراجهم يبحثون عنها في المكان الذي أكلوا فيه ، وبينما هم يبحثون تفجرت
العين فسموها عين غدامس أى حيث الغداء بالأمس .. غدا أمس ..
فأصبحت غدامس وهي فبركة طريقة لاختلاق أصل عربى لاسم غير عربى .

لكن الحقيقة غير معروفة .

متى .. وكيف .. وفي أى عصر .. انفجر هذا الينبوع فأحبال الصحراء إلى
جنة .. لا أحد يعلم .

لكن كالعادة الخير أتى ومعه الشر .

فما لبثت الواحة الخصبية أن أصبحت مطعماً للأقوياء وتعاقب عليها الغزاة ..
الرومان والوندال والبيزنطيون .. ومازالت بها إلى الآن آثار رومانية ..
وطرز العمارة البيزنطية واضحة في طابع مبانيها .

ولقد ظلت غدامس مسيحية بسبب الوندال والبيزنطيين إلى سنة ٦٦٦
ميلادية (الموافقة ٤٢ هجرية) حينما دخلها العرب بقيادة عقبة بن نافع
ليحولوها إلى الإسلام .. وبعد الحرب جاء الأتراك في القرن السادس عشر ثم
إيطاليا في سنة ١٩٢٤ .. وانهت قصة استعمار الواحة في يناير ١٩٤٣ حينما
أغارت قاذفات القنابل الفرنسية على مطارات إيطاليا وتكناتها في الواحة في
الحرب العالمية الثانية ونزل الستار على التاريخ الطويل الدامى .

ولكن أغلب الظن أنه كان هناك تاريخ ما قبل التاريخ في الواحة .. فهناك
آثار عصر حجرى وسكاكين وخناجر من الصوان .. وقد عثر على ثقال عجلى
ذى رأس بشرى بالقرب من بئر عوان بمجنوب غدامس ذى ملامح من النحت
البدايى الذى كان موجوداً في مصر قبل التاريخ .

إنها قصة قد تطول إذن إلى عشرة آلاف سنة وربما أكثر لا أحد يدري .
وكل هذا التناطح دار حول بئر انفجرت وسط الصحراء .

وكان هناك نظام قديم للسقاية من البئر يدل على مدى قيمة الماء في ذلك
الوقت فقد شق الأهالى عدة أنهار تجرى فيها مياه العين وعلى كل نهر بوابة
يمكن أن تفتح وتغلق واستعملوا ما يشبه الساعة المائية .. سطل مثقوب تسيل
منه المياه ببطء حتى يفرغ على مدى ساعة زمن .. وعند بدء الساعة يفتح أحد
الأنهار لتستقى منه إحدى القبائل وفي نهاية الساعة تغلق البوابة فتنتهى
السقاية .. ويحجى الدور على القبيلة الثانية التى تستقى من النهر الثانى وهكذا
ير الدور على جميع القبائل .. أول نظام لعداد مائى في العالم .

ومازالت هناك ثلاثة أنهار جارية تخرج من البحيرة الكبيرة التى تصب فيها
العين .. ومازالت تحمل الأسماء البربرية القديمة .. تاسكو .. وتارت ..
وتنجسين .

وقد بنى الأهالى مدينتهم فوق هذه الأنهار فأصبحت أول مدينة تجرى من
تحتها الأنهار كأنها الجنة ..

أهلها لا يعرفون السرقة ولا القتل ..

والبوليس يجلس فيها بلا وظيفة أمام دفاتر خالية ..

وتحكمها روح سيدى البدرى ..

وتجربى من تحتها الأنهار ..

ولكنها جنة عجيبة درجة حرارتها ٤٨ .

الكلمة بالليبي العاصي	الكلمة بالعربي
يمدرز	يثرثر
يعفلج	يفرفز
باهي	كويس
الله غالب	يفتح الله
مربوحة	رابحة انشاء الله
لا سو	لا بأس
يشيح	يشوف
يرجب	يمتدح
عنده ناموس	عنده هم
هجاله	أرملة أو مطلق
لوطه	الأرض
طار السو	خد الثبر وراح
مصامة الكرشة	(عند انكسار شيء)
يدهور	آخر العنقود
يكحل	يتفسح
الانقر	يبصبص
الدلاع	قرة العين
يدوى	البطيخ
الكورفي	يتكلم
يجنتر	السخرة
	يفشر

الظلام حالك منه النهار

احترقت طائرة المارشال بالبو وهي الآن رماد تذرره الرياح من سنين .

ماتت القبلات .

والعشيقات الفاتنات أصبحن الآن عجائز بلا أسنان .

وهاهو السرير الشهير في فندق غدامس يشهد ليلة جديدة مختلفة .

فعندما يأتي الظلام سوف آوى إلى السرير وأنا احتضن كتاباً

إنه عشق من نوع جديد .

ولعله العشق الوحيد الذى تدوم فيه القبلات ويتمز العناق .

وشعرت بأنى يجب أن أعتذر للبانو فلن يكون له دور كبير فى غراميات
الليلة .

وكان بانو فاخراً مبطناً بالقيشاقى الأسود والدنس فيه ينزل ساخناً ملتبها
بلا سخان . وكل حنفية هنا تنزل منها المياه ساخنة . فرمال الواحة الملتببة

تعمل كموقد طبيعى طول الليل يرفع حرارة جميع الأشياء .
ورحت أنقب تحت السرير وراء الأبواب وفى الأركان عن العقارب
والثعابين والسحالي والعناكب والأفاعى .

وسمعت قرعاً على النافذة وأطل رأس الأخ المصراتى :

- أنت مستعد ؟

- ليه ؟

- حانطلع جبل قصر الغول .

كان خادم فندق غدامس يدور فى غرفتى فى سعادة ويشير بأصبعه مبيتاً إلى
السرير الذى أنام عليه .

- هذا السرير نام عليه المارشال بالبو منذ أكثر من ثلاثين سنة . . ومنذ
سنوات قليلة كانت تحتل هذه الغرفة صوفيا لورين ونامت على نفس السرير
أربعين ليلة . . كانت تصور هنا فيلم « الخيمة السوداء » وفى هذا البانو كانت
تستحم كل مساء .

إنها غرفة محظوظة . فى أيام الاستعمار الإيطالى كان المارشال بالبو يجلب
العشيقات الفاتنات من روما بالطائرة وكان يلا هذه الغرفة بالضحكات . .
وكانت قرعات الكنوس ترن فى سكوت الواحة . . هذا سرير له ذكريات . .

ورحت أتمرغ فى سرير المارشال بالبو وصوفيا لورين .

انتهت الضحكات .

وأعجبني الاسم.

كانت له رنة في الأذن توقظ الرغبة في المغامرة.

وقلت له إني آت فوراً.

جبل قصر الغول !

وفي دقائق كنا نركب عربة لاندروفر تترنح بنا خارجة من الواحة إلى عرض الصحراء .

وكان هذا أول لقاء لي مع الصحراء .. ذلك البساط من الرمل بلا حدود وبلا طرقات وبلا عود أخضر وبلا قطرة ماء .. وذلك الهواء الجاف الساخن كأنه متديل كبير من الشاش يمسح العرق ويجفف اللعاب .. وتلك الأرض الهشة التي انفرطت إلى ركام من الدقيق الأصفر وتلال وأكام وجبال ووديان تصفر فيها الرياح فتصبح السماء بلون الأرض ولا ترى يدك على بعد متر من عينيك وكأنك غرقت في مستحلب أصفر وتحولت إلى ذرة تراب في عالم من التراب يدخل من فك وأنفك وأذنيك وعينيك وجلدك ويلدعك بلايين التبال الساخنة .

وكانت اللاندروفر تتلوى صاعدة هابطة ساقطة .

وأمعاني تنخضخض .. ورأسي يحيط في السقف .. وبعضى يحيط في بعض .. والسائق ماهر جداً .. ومتخصص في الطريق ومعه دليل .. ونحن جميعاً نشكر الله .. فلولاً ذلك لتأهت السيارة لأي خطأ طفيف في الاتجاه ودخلت في واحدة من تلك المتاهات التي يسمونها الرمال الناعمة حيث تغوص كما يغوص الحجر في الماء .

ومرت ساعات دون أن تقطع مسافة تذكر.

وظهرت الحدود الجزائرية على البعد .

ودرنا حول الحدود ثم بدأت السيارة تسرع على سهل منبسط لتلقى بنا في النهاية عند أقدام جبل صغير أشهب ملئ بالتوهات الصخرية .. قال السائق وهو يتوقف أمامه :

- هذا هو جبل قصر الغول .. هنا حدثت المعركة بين جنود عقبة بن نافع وبين الكفار .

ونزلنا تتسابق جرياً إلى القمة وأشهد أن الأخ على المصراق كان أسرعنا وصولاً . وكان أول من صاح وهو يطل علينا من فوق :

- لقد وجدت البئر .

أما أنا فقد توقفت عند منتصف الجبل أمام كهف مظلم ..

وجلس على صخرة كبيرة ألنقط أنفاسي . وقال لي الضابط المرافق إن هذا الكهف نقيه جنود عقبة بن نافع في الجبل . وظلوا ينقبون في الجبل حتى بلغوا نقطة التقاطع مع البئر ورابطوا هناك يقطعون كل جبل يدلي به الكفار ليستقوا من الماء حتى أشرفوا على الموت عطشاً فلم يجسدوا بدا من النزول والالتحام مع جيش عقبة وانتهت المذبحة بانتصار العرب .. وأنت تستطيع أن ترى من هنا قبور الشهداء من الصحابة .. وأشار إلى عدد من القبور منصوبة بطريقة إسلامية بسيطة .

وحيناً بدأنا نسير نحو القبور .. كنت أفكر في الطريق الطويل الذي قطعه هؤلاء المحاربون من مكة إلى قلب الصحراء الليبية يسعون على الإبل وعلى الأقدام حفاة لا يملكون من الزاد إلا حفنة من التمر .
أي قوة رهيبة .

الكلمة بالعربي	الكلمة بالغدامسي
نجمة	ابري
دراهم	دراهن
الطفل	امطفال
الخصومة	اكناس
يبكى	يطزف
الفراشة	فرططوا
الخشب	ابرج
النار	اوقا
الماء	أمان
النساي	شاي
القهوة	قهوة
المرأة	ثلثا
الرجل	واجيد
١	يون
٢	سن
٣	كاراخي
٤	اكظ
٥	شمس
٦	سظ
٧	سا
٨	تام
٩	اتصو
١٠	ماراو
١٠٠	مائة
ألف	الف
مليون	مليون

وأى طاقة أطلقتها كلمات القرآن في هؤلاء الأجلاف الجاهلين فجعلت منهم فدايين ورسل فكر وعلم وحضارة يسعون لمصارعة الموت وهم يبتسمون .

وحينما بدأت أقرأ الفاتحة لاحظت أنى فقدت صوتى من العطش وأن حلقى قد جف تماما وتحول الى أنبوبة من الخطب لا يخرج سوى الفحيح .

إن ترف المدينة واللاتندوفر وخبراء الطريق لم تستطع أن تعطينى قوة .
إن الكهرباء والذرة والقطار والتليفزيون سوف تزيدنا رخاوة ..

إننا نفقد ولا نكسب .

إن إنسان العصر ينحرف تدريجياً ويخسر ذلك الشيء الذى كان عند هؤلاء المحاربين العظام الذين انطلقوا كالمردة وهبوا كالأعاصير وغيروا وجه الدنيا .
نور القلب قبل نور الكهرباء هو مايجب أن تبحث عنه .

نبح روح .. فتبع بقول لا يكنى .

لقد خرج النور من أفقر أمة على وجه الأرض لا تملك سوى البعير والخيام واقتحم على الفرس والروم ديارهم وكل ذخيره كلمة حق .

واليوم عندنا الحديد والصلب والكهرباء والبخار والذرة ونغوص كل يوم في الحقد والكراهية الى الركبتين ونزداد رخاوة وضعفاً .

العلم المادى أضاء لنا البيت ولكنه لم يضى لنا قلوبنا .

العلم قدم لنا جاهلية جديدة أسلحتها الغواصات والصواريخ والقنابل الذرية .

وركعت ألى الرمال حيث تنام قلوب امتلات عزماً ومحبة وشجاعة .

وحينما كنا نعود إلى غدامس كانت أكثر من عشرين مئذنة تؤذن باسم الله.
وواحة غدامس تقع في قلب الصحراء الليبية على خط عرض ٣٠ شمالاً
وارتفاع ١٢٠٠ قدم فوق سطح البحر قرب حدود تونس والجزائر. . وتعدادها
السكاني وصل في عام ١٨٤٥ إلى ثلاثة آلاف بينهم خمسمائة عبد. . وفي سنة
١٩٤٠ وصل إلى تسعة آلاف وخمسمائة معظمهم من البربر والطوارق. . وهو
تعداد كبير نسبياً. . في بلد آخر قريب مثل « فلفلت » يبلغ عدد السكان
أربعين نفرًا فقط منهم سبعة رجال والباقي نساء وأطفال. . وهذا كل شعب
فلفلت. .

والواحة محاطة بسور منخفض يبلغ محيطه ٣ أميال. . فيه عدة أبواب كان
يقف عليها الحرس شاكي السلاح.

واشتهرت غدامس بطول التاريخ أنها أكبر محطة قوافل. . وكان يمر منها في
العام أكثر من ثلاثين ألفاً من الإبل.

ومن أهم خطوط القوافل التي تخرج من غدامس ذلك الخط الذي يبدأ من
غدامس ثم يتجه إلى غات ثم تبوكتو.

وتجارة العاج وريش النعام وتراب الذهب والشاي والعطور التونسية
والثياب المطرزة ومتاديل الحرير كانت تخرج وتدخل ليبيا عبر غدامس.

وقد عرف الكثير من التجار السبيل إلى الثراء عن طريق تلك القوافل.

كتب أحدهم يقول : « قطعت ذلك الطريق سبع مرات كنت في أولها خادماً
وفي آخر مرة كان عندي سبعة من الخدم ».

وكان هذا أمراً طبيعياً بالنسبة لعالم قديم لا يعرف الطائرة ولا القطار
ولا السيارة ولم تكن له شرايين يعيش بها سوى قوافل الصحاري.

ولكن مثل تلك الرحلات لم تكن نزهة سهلة. فقد كان الموت والهلاك
يترصد المسافر في كل خطوة من الوحوش وقطاع الطرق وهلاك الإبل والموت
عطشا وضلال الطريق وطول السفر الذي كان يمتد إلى شهور في الحر اللافتح
وسواقي الرياح. . ولهذا كان طبيعياً أن يرتفع عن البضاعة إلى عشرة أضعافها
وأن يصبح الريح سخياً تجزياً. . مثلاً كانت العبادة الحريرية يبلغ ثمنها عشرة
خراف وكان رأس الإبل الواحد يباع بمائة وعشرين خروفاً.

ومازال تجار غدامس إلى الآن يحتفظون بألقاب عائلاتهم القديمة. . أولاد
شهاب وأولاد بكر. . وأولاد النقي.

والجد الأكبر لعائلة النقي الذي بلغ من الثراء وتكدس الذهب إلى درجة
الخرافة. كان يقال إن الجن هو الذي يجلب له الذهب وأنه بدأ وأحاله بكنز
من العملات الذهبية دمه عليه الجن.

والأرض خصبة في غدامس تنبت كل شيء حتى القطن والزيتون والرمان
والشام والبطيخ والبطاطم والخضر ولكنها مهملة لا ينبت فيها سوى النخيل.

وأعجب ما في غدامس مبانيها. . البيوت المتلاصقة ذات التتواءات المثلثة
(لطرد الشياطين والأرواح الشريرة) والأبواب المنقوشة بالطلاسم والتعاويذ
وخاتم سليمان المطبوع على رقاع من الجلد ومعلق في المداخل.

وجميع البيوت لصق بعضها بها سطح واحد، والنساء يعشن على الأسطح
ولا يبرحنها.

يجتمع النساء. . وسوق النساء. . وحياة النساء. . كلها على الأسطح

ولا يرى على الأرض في الشوارع إلا الرجال.

والشوارع جميعها مسقوفة وضيقة ومظلمة بحالكة الظلام في عز النهار مثل
ممرات متنجس تفوح منها روائح العرق والتراب.. ولا تستطيع أن تمشي فيها
بدون بطارية..

وفي المدينة سوق للنخاسة كان يباع فيها الرقيق في الأيام الخالية.

وفيه أكثر من عشرين مسجداً.. وفي كل مسجد مقصورة خاصة
بالنساء..

وجميع الغدامسة مسلمون متمسكون بديانتهم وعندما ينادى المؤذن للصلاة
تخلو جميع الشوارع وتخلو جميع المتاجر من الناس.. الكل يذهب إلى المسجد.
وهم يعالجون المجنون بتلاوة القرآن على رأسه.

ولا أحد يسرق ولا أحد يقتل.. والغدامسى إنسان وديع جدا ومسامح جداً.

ومن تقاليد الزواج عندهم أن يبق العريس والعروس في «الحجبة» وهي
دروة أو خيمة صغيرة متر في متر داخل البيت لا يرحلها لمدة سبعة أيام.

والأكلة الغدامسية الشعبية هي الملوخية والبازين.

والملوخية تطهى بطريقة خاصة، فهي تحفف ثم تطحن حتى تصبح دقيقتاً
غاية في النعومة ثم مزج بالزيت وتضاف إلى الماء وتغلى ندة طوبيلة ثم يضاف
إليها اللحوم والبهارات وقليل من السمن.. وطبق الملوخية يقدم عادة مغطى
بالزيت..

أما البازين (وهو أيضاً أكلة طرابلسية شائعة) فهو أشبه بالعصيدة
المصنوعة من دقيق الشعير والماء المغل وبعد النضج يضاف إليها الملح ثم تكور

على شكل كرة وتحفف ويوضع في قلبها الحنظل واللحم.

وفي غدامس قلعة بنيت في عهد الاحتلال الإيطالي وقلعة أخرى قديمة بنيت
في عهد الاحتلال التركي.

وما زال الغدامسة يذكرون اليوم المشؤم الذي جاءت فيه كوكبة من جنود
يوسف القرمالي (الحاكم التركي) إلى الواحة وأخذت بالغضب والتهديد أكثر
من ألف وزنة من الذهب أو كانت تجمع النساء والأطفال رهائن وتجلد كل من
يرفض الدفع.

وهم يذكرون أيضاً أيام الاستعمار الإيطالي الأسود سنة ١٩٤٠ حينما كان
الإيطاليون يجمعون الثيابين ويخندونهم بالسفرة لحرب الفرنسيين في الجزائر..
وكانوا يعتقلون كل من يرفض ويودعونه السجن.. ويفرضون الضرائب على
كل تاجر وعلى كل رأس من الإبل.

وهم يذكرون ذلك اليوم من شهر يناير ١٩٤٣ حينما هاجمت قاذفات القتال
الفرنسية غدامس لضرب النكتات الإيطالية فيها وأشعلت الحرائق وقتلت
المئات من الغدامسيين تحت الردم.

ولكنهم يواجهون هذه الكوارث بروح قدرية تؤمن بأن الموت كتاب وتسلم
كل شيء لله.

والقبائل التي تسكن غدامس بعضها بربر وبعضها طوارق وبعضها عرب.
والطوارق يسكنون خارج غدامس في قرية «الظاهرة».

أما البربر فيسكنون المدينة وهم مزيج من عرق بربري وعربي وينحدرون
من قبيلتين: قبيلة وليد.. وقبيلة زيد.

ومن قبيلة وليد خرجت ثلاث قبائل : ضرار ، وناسكو ، ومازيغ .

ومن زيد خرجت أربع قبائل : جرسان ، وفرقة ، وتنجسين ، وأولاد باليل .
والقبائل السبع أطلقت أسماءها على سوارع المدينة . . سوارع ضرار . .
وسوارع تاسكو . . وسوارع مازيغ . . وسوارع جرسان . . وسوارع فرقة . .
وسوارع تنجسين . . وسوارع باليل . .

وسوارع باليل هو آخر سوارع دار فيه القتال بين المسلمين وسكان الواحة
وهو القتال الذي استشهد فيه السيد البدرى .

والمدينة ذات البيوت المتلاصقة والسطح الواحد . والسوارع المسقوفة لها
أيضا عدة أبواب . . على كل باب تقرا عبارة عربية منحوتة وتقرأ تاريخ بناء
ذلك الباب . . وكل باب له اسم .

على باب « أم سبيلن » تقرا :

يا من دخل وخرج بعد الضيق تجد الفرج .

وتدخل من باب « أم سبيلن » إلى سوارع مظلم يتفرع بك إلى تلك القنوات
العربية كأنها ممرات وتفتح بك الطرقات هنا وهناك على ميدان أو ساحة يجتمع
فيها أهل البلد في الحفلات والمهرجانات أو ملعب يلعب فيه الأطفال . .

وحفلات الأعراس عندهم يعزف فيها زمار وعدد من النساء يضربن الطبل
وهن محجبات تماما ويرقص الرجال ولا ترقص النساء البربريات .

واللغة الغدامسية هي مزيج من اللغة العربية واللغة البربرية والعامية الليبية
واللغة الطارجية (لغة الطوارق) .

وتعدد الزوجات موجود بين الغدامسة ولكنه قليل .

ونشط البكارة في الزواج ضرورى .

وفي أحد سوارع البلدة المسقوفة تجد عددا من الحمامات مبنية فوق أحد
أنهار عين الفرس (وجميع الأنهار التي تخرج من عين الفرس تجري تحت مبانى
البلدة . . فالبلدة مقامة فوق الأنهار) . وفي كل حمام تناءة تضع عليها ثيابك
قبل أن تنزل إلى البانيو ، والبانيو هو النهر نفسه الذي تجري فيه مياه العين
داغمة صيفا وشتاء .

وما زالت الأصنام التي كان يعندها أهل غدامس قائمة خاراج البلدة قرب
قرية الظاهرة .

الرجل
و
ملثم
المرأة
سافرة

وطوارق غدامس أكثر تحضرًا وقدنا من إخوانهم الذين يعيشون على البداوة والترحال والتنقل وراء المراعى في صحارى الجزائر والسودان.

وهم يتبعون قبيلة كبرى اسمها فوغاس والاسم مشتق من فغسي باللغة التارجية «أى الطوارقية» وهو اسم حيوان فغفس . . وهذا يدل على العقيدة الطوطمية «تقدس الحيوانات واعتبارها أجداداً انحدر منها الجنس».

وقد انحدر من فوغاس ثلاث قبائل : كل تهي هاوت . . وكل أوراغن . . وكل نسيلى .

وكلمة «كل» معناها ابن - أى ابن تهي هاوت وابن أوراغن . . وابن نسيلى . . وهى القبائل الثلاث التى تؤلف الطوارق السبائة الذين يستقرون فى قرية الظاهرة خارج غدامس .

والطوارق الغدامسة مسلمون مالكية متمسكون بدينهم .

وقد غير الإسلام طباعهم وعاداتهم .

ودخل الترانزستور ودخلت البطارية والدراجة لتغيرهم أكثر .

وقواعد الزواج يحكمها التشريع الإسلامى ، فلا زواج بين أبناء وبنات البطن الواحدة ولا بين الأب وابنته ولا بين الأم وابنها ولا بين الأخوات فى الرضاع وبالمثل تكون المسابقة بين أمثال هؤلاء من الحرمات أيضاً .

وفى كل قبيلة فقيه يعلمها القرآن ويخرج معها فى أرحالها .

وامرأة عجوز سنها ٨٢ سنة اسمها «مبروكة ايدا ماهولزا» سمعناها تقرأ القرآن فى مصحف مخطوط . . وهى تحفظ . جميع السور عن ظهر قلب .

وفى الولاية الكبيرة التى أقامها لنا الطوارق جلسنا على سجاجيد وخشايا

لاشئ يثير فى غدامس مثل هؤلاء الفرسان العرب الملتحين . يركبون المهارى (نوع من الإبل السريعة) ويسيرون فى قوافل مهيبة لا يظهر من الواحد إلا عيناه تبرقان فى ضوء الشمس ، أما الوجه والرأس فيخفيهما لثام أبيض وأحياناً ملون . والجسم يلتف فى عباءة فضفاضة بيضاء أو ملونة . . وإذا صادفت أحدها يمشى فى الصحراء خيل إليك أنه أمير أو ملك يمشى فى قصر ، فهو دائماً يمشى رافع الرأس فى اعتداد وخطو ثابت وثاق كأنه قيصر يتفقد مملكته ، وهو دائماً أتيق رشيق معطر .

هؤلاء الفرسان هم الطوارق .

والطوارق هم قبائل متعددة غلأ الصحارى التاسعة فى الجزائر وليبيا والسودان والنيجر .

ونيرة وقدم إلى كل منا فوطنة نظيفة مبخرة بالمنك والعنبر وبدأت الضيافة بالدين والقرن « وهم يشربون لبناً حامضاً » ثم الخنروف المشوى بالكسكسى ثم الشاي العربي .

وقبل العشاء قدم شباب القبيلة عرضاً لألعاب الفروسية على ظهور المهارى ورقصت المهارى على الطبول .

وبعد العشاء بدأ السمر الذى طال إلى نصف الليل .

واللغة التى يتكلم بها الطوارق « التارجية » من أصل بربرى ويقال إنها مشتقة من اللغات السامية القديمة وفى رأى ثالث إنها إنتاج محلى وإن لها أصولها الخاصة فهى وسائل التعبير الأولية التى ابتكرها الأجناس البدائية التى سكنت الشمال الأفريق من ألوف السنين .

واللغة التارجية ليس فيها حرف (د) وحرف (ض) وإنما حرف واحد يدل على الاثنين وأيضاً لا يوجد فيها حرف (س) وحرف (ص) ولا حرف (ق) وحرف (ك) . وإنما حرف واحد أقرب إلى حرف الصاد والكاف .

ولغة الكتابة واسمها « تيفياخ » مؤلفة من ٢٤ حرفاً . وهى أشبه بالعلامات الهندسية « دوائر ومربعات ونقط وشرط وثلثات » . وهى تنقش على الحجارة والخلود والخشب وتستعمل فى مناسبات قليلة لتسجيل الملكية أو عقود الزواج وتكتب من اليمن إلى اليسار أو من فوق إلى تحت . ويتخاطب العشاق بإشارات من أصابعهم دون نطق كطريقة سرية للتفاهم على المواعيد .

وأصل هذه اللغة غير معروف ويقال إنها مثل لغة الكلام من أصل سامى .

واللغة العربية معروفة قراءة وكتابة بالنسبة للطوارق الغدامسة .

وللطوارق أشعار وأغانٍ ومثشورات باللغة التارجية يتحدث عن الحشر

والحب والصحرى والجبال وسكون الليل وجلسة العشاق متسابكى الأيدي حول النار الراقصة وذلك الإحساس الذى يستولى على الحبيبين فيسرعان بالجمال الطاغى للحياة والتمتع والتجنى ورقصة العصفور « مولا مولا » أمام الخيمة وتنسج القلب حيناً يفضى بأعنى اللوايح والعواطف .

وهم يغنون أشعارهم على الربابة « بمزاد » .

والهجائن تحكى الحكايات والأساطير للأطفال قبل النوم . . وأسهر الأساطير تلك التى تحكى أن الصحارى فى الماضى البعيد كان يسكنها ناس يتبحون كالكلاب ولا يعرفون الله وأن ملكهم عكار كان عاتياً جباراً وأنه مات مقتولاً وبنت له مقبرة هائلة من الحجارة .

وموسيقى الطوارق هى معزوفات على المزاد والطبول والسلم الموسيقى خماسى مثل الموسيقى السودانية .

ولا يعزف الربابة « بمزاد » إلا النساء . . وإجادة المزاد علامة على حسن تربية البنت وتبل عنصرها . وبعض الفتيات عازفات قهديات ذوات شنبهة بين قبيلتين يقطع هن الرجال أميالا من الصحارى ليستمعوا إليهن .

وعادة اللثام بالنسبة للرجل والسفور بالنسبة للمرأة عادة غريبة من الصعب تفسيرها .

والنظرية القائلة بأن اللثام يلبس كوقاية من العواصف الرملية لا تفسر لنا لماذا لا تلبسه المرأة أيضا . . والنظرية التي تقول إن الرجل يلبس اللثام ليتغنى عن عدوه نظرية غير صحيحة لأن الرجال يتهافون على بعضهم بالرغم من اللثام .

وأغلب الظن أنه نوع قديم من التحريم الوثني الذي كان يعتبر قم الرجل عورة ' لأنه مدخل الهواء والماء والطعام ، ومخرج التنفس أو هو باب الروح الذي يمكن أن يدخل منه الجن والأرواح الطيبة والشريرة ' ، ولهذا وجب أن يحجب الرجل فلا يكشفه أبدا .

والمرأة تقول في امتداح زوجها أنها عاشت معه عشرين سنة دون أن ترى فيه . .

وحينا يحدث أن يقع اللثام فجأة فإن الرجل يسارع بيده ليحجب فيه وكأنه عورة فعلا ويسارع بيده الأخرى ليلتقط اللثام من على الأرض .

ومنتهى سوء الأدب أن يكشف الرجل فيه أمام المرأة حتى ولو كانت زوجته .

ولا يمشى بدون لثام غير الأطفال ، فإذا أدركوا سن البلوغ ألبسهم أبائهم اللثام في احتفال يقام خصيصا لذلك ، ومن تلك اللحظة يسمح لهم بحضور مجالس السمر وينظر لهم على أنهم أصبحوا رجالا .

إن اللثام علامة كمال الرجولة .

الكلمة بالعربي	الكلمة بالتاريخي	الكلمة بالعربي	الكلمة بالتاريخي
عين	طيط	الكراهية	كوسن
وردة	طيط	الفضب	أبليس
الحليب	أخ	الفرح	ترامان
الدم	أهني	الحرب	أن مقفى
قر	تينى	السلام	مانا وين
الحبة	ترا	أهلا	ايسلا
الذكر	أى	الحياة	تامت دورت
الأثني	تونتي	الموت	تامت تانت
الجمل	ايمناس	الله	ايملى
الحصان	أيس	الريح	أضو
شجرة	أشك	جبل	أضرار
صحراء	تينيرى	مهرجان	أراواضى
المطر	أنجى	قبيلة	تاوسنت
الطفل	أباراء	خيز	تاكاي
النار	تيمسى	ماء	أمان
الحطب	ايضا غيرن	سما	أجنا
الرجل	اكس	الخير	أين
المرأة	طمط		

وحق أثناء الأكل على الرجل ألا يكشف عن فمه .. وعليه أن يأكل من تحت اللثام ومن يكشف عن فمه أثناء الأكل فهو يدل على وضاعة تربيته وسوء متبته تماما كمن يأكل بأظافره عندنا .

أما لماذا لا تلبس المرأة اللثام فهو أمر غير مفهوم .

ولماذا اعتبرت التقاليد فم الرجل عورة ولم تعتبر فم المرأة عورة ؟ .
هذه كلها أسئلة بلا جواب .

والطوارق لا يختنون البنات .. والختان عملية مقصورة على الذكور .
وختان الأطفال يتم في اليوم السابع .

كما أن تسمية الأطفال تتم أيضاً في اليوم السابع .. يسميهم أعيانهم وليس آباؤهم .

والزواج يبدأ بالخطبة والأب هو الذي يخاطب لابنه .

لكن البنت في الطوارق تختار في حرية .. وتوافق أو لا توافق .. والمهر عادة سبعة رؤوس من الإبل أو ما يقابلها من الخراف ويتم حفل العرس بالموسيقى والغناء ' أغنية شجرة الزيتون ' وفي نظر الدكتور قرمان أن هذا دليل على بقايا وثنية لأن شجرة الزيتون من الأشجار التي كانت تعبد أيام الوثنية الأولى .

وتبدأ العلاقة الزوجية وتستمر سنة وأحياناً خمس سنوات ، تذهب الزوجة كل ليلة إلى الزوج لتبيت معه ثم تعود لأهلها في الصباح ويسمون هذه الفترة فترة التأهيل .

وبعد هذه الفترة تعد خيمة جديدة تستلزماتها يوضع فيها جهاز العروس

وتدخل امرأة عجوز لتقرأ تعاويذ خاصة لطرد الجن .. وبعد ذلك تبدأ الحياة المشتركة .

والطلاق يحدث بسبب العقم وسوء المعاملة وأمراض مثل الجذام والجنون . وعلى المرأة بعد الطلاق أن تقضى شهور العدة كما في الإسلام قبل أن يجوز لها الزواج من جديد .

والطوارق الغداسة اشتراكيون بالفطرة . فإذا ذبح أحدهم ذبيحة فهو يطعم كل الجيران ويقسم الذبيحة بالتساوي على القبيلة .. ولا أحد يأكل اللحم وحده . وكذلك إذا تقدم السن بأحدهم فإن كل القبيلة تشترك في سداد حاجاته وكل واحد يعطيه نصيباً من السكر والشاي واللحم والأقشة .

ولا يوجد طوارق يشحن .

والسارق يعاقب بالطرد والنيد والمقاطعة الكاملة من القبيلة .

والقاتل يحكم عليه بالقتل .. والحكم يصدره الرئيس الأعلى للقبائل ' امينو كال ' .

والطوارق معمرين . والواحد منهم يبلغ الثمانين وهو يحتفظ بجميع لياقاته وفي صحة جيدة .. والسري ذلك هو حياة الهواء الطلق والطعام القليل وبساطة المعيشة وخلوها من القلق والهموم .

والطوارق لا يأكل إلا وجبة واحدة وباقى اليوم يشرب اللبن ، وأثناء الترحال الطويل يكتفى بشرب اللبن وأكل التمر وهو يشرب من اللبن كميات كبيرة . وأحياناً لثرا كاملاً في المرة الواحدة ، وهو دائماً لبن حامض .. وهو لا يعرف الخمر ولا المخدرات .. ويغضغ الدخان ولا يدخنه

وهم يحكون عن أوفانائيت الذي كان مغرماً بتدخين البيبه وعاش ١١٥ سنة .

والطوارق لا يرهب عندما يحضره الموت ينطق بالشهادتين إذا كان مسلماً وإلا فهو يرفع أصبعه السبابة ويطلق آخر تنهيدة .

ويعقب الموت القفل ثم التكفين والدفن على الطريقة الإسلامية حيث يمد متجهاً إلى القبلة ، ثم تقك خيمة الميت ويصبح مكانها حراماً لا ينصب أحد خيمته فيه .

وترفع الراية البيضاء على الخيمة حيناً يموت أحد فيها .

والحداد والملابس السوداء واللطم والندب والعيول أشياء غير معروفة بين الطوارق ، والكلمة التي تقال عند الموت لأهل الميت : علينا أن نفرح ، فقد ذهب من نحب إلى الجنة .

والزوج يلبث ثلاثة أيام بعد وفاة زوجته في خلوة كاملة داخل خيمته لا يخرجها . .

والزوجة تظل أربعة أشهر وعشرة أيام في اعتكاف كامل ، ثم بعد هذا تستطيع معاودة الحياة الاجتماعية العادية وتزوج إذا أرادت .

والزوجة لها مقام عال ولها احترام في بيت الزوجية ، وهي تشارك زوجها جميع المسؤوليات والأعباء ، وأنها يؤخذ في كل الشئون . . وتعدد الزوجات غير معروف بين الطوارق مع أن الإسلام يبيحه . . ولا تفسر لهذه الظاهرة سوى أن الطوارق قد ورثوا مع ما ورثوه من تقاليد " تقديس الأم " استمراراً للقوانين القديمة التي كانت تضع الأم على رأس القبيلة وتنسب الابن لأمه

الكلمة العربية	الكلمة التارجية
البيض	تيسادالن
الخبز	تاجلا - تاكايا
النساء	شاهي
القمح	ايرد
الذرة	اينالي
التمر	تيفي
البصل	ايفيليلي
النسطة	الحر
الشعر	تيمظن
اللبن	أخ
اللحم	ايسان
الدخان	تابا
ملقحة	تاسوكالت
إناء الطبخ	ايغير
الحلو	ياظيه
الشر	مهم

لا لأبيه وتعطى المرأة الحق في أن تتزوج أكثر من زوج ، وأن تكون الحاكمة على أزواجها الرجال والحاكمة على القبيلة كلها .

وفي كتاب تاريخ السودان نجد بالفعل المؤلف يزوي لنا أن في سنة ١٤٧٥ كانت تقطن السودان قبيلة من البربر تحكمها امرأة اسمها بيجوم كافي .

ومعنى ذلك أن نظام سيادة الأم كان معروفا بالنسبة للبربر القدامى .

وبالرغم من انقراض هذا النظام إلا أنه مازال يخلف تلك الآثار من تقديس المرأة في قبيلة الطوارق . فالمرأة تعمل وتعزف الموسيقى وترأس الحفلات وتختار حبيبها وتختار زوجها . وترفض تعدد الزوجات بالرغم من أن الإسلام يبيح هذا التعدد شرعا .

ومن أسماء الرجال . . أوخا . اخديدي . أخيا . . أخنوخا .

وأخيا التاريخي كان فارسا شهيرا حارب الأتراك في غات وقتل حاميا وقاد ثورة مطالبا بالامتيازات السياسية .

وأخنوخا التاريخي عاصر نابليون . . وأرسل له نابليون الرسل ليعقد اتفاقية بين فرنسا والطوارق فرفض أخنوخا . .

ومن أسماء الفتيات . . فتاتا . . ومالا .

القبائل
بحكم
الأنف
بالأنف

وكل تلك القبائل كانت من أجناس ما قبل التاريخ، من ذلك الجنس الذي ظهر في الشمال الأفريقي والذي يعرف باسم «كروما جنون».

ويقال إن أصل الطوارق من البربر وأصل البربر من جنس الكروما جنون.

وفي أحد الآراء أن القراعة أنفسهم من البربر، ويساق هذا الرأي كتفسير للطفرة الحضارية التي حدثت في وادي النيل وكيف كانت بتأثير هجرات من الكروما جنون والبربر.

ومعنى هذه النظرية أننا سنلتق مع الطوارق في سابع جد.

وفي رأي آخر أن أصل القراعة آسيوي.

والكلام كثير في أصل القراعة والحقيقة غير معروفة.

لكن مما لا شك فيه أن الصلات بين مصر وليبيا عن طريق التجارة والهجرة والحروب لم تنقطع طوال التاريخ القديم.

أما الطوارق البيض والشمق ذوو العيون الزرقاء فهم من دماء أوربية جاءت إلى الشمال الأفريقي عن طريق البحر في الزمن القديم.. وفي قول آخر أنهم من أصل أفريقي - فينيقي وكريتي.

وطوارق الجنوب السود ذوو التقاطيع الزنجية من أصل سوداني جنوبي.

والمؤرخون العرب لهم نظرية خاصة في أصل البربر.. يقول ابن عبد الحكم إنهم من فلسطين وأنهم هربوا بعد مقتل ملكهم جالوت بيد النبي داود وهاجروا إلى ليبيا.

ويتحدث صاحب المسالك عن هجرة قبائل الهوارة والزناة والدايزسة

يبدو أن قلب الصحراء الليبية كان مسرحاً لإنسان ما قبل التاريخ.. تدل على ذلك الثروة الهائلة من الآثار والمخلفات من العصر الحجري.. ما تكاد تحفر في الرمل حتى تعثر على تلك الآلات العجيبة.. سكاكين وبلط وحراپ وسهام ومناشير ومبارد حجرية واير من العظام..

وتلك التلال من الحصى المرصوص عند أقدام الجبال هي ما تبقى من شواهد المدافن القديمة.. ما تكاد تحفر تحتها حتى تجد مئات من الهياكل العظمية والآدمية هؤلاء الذين رقدوا رقاد الموت منذ عشرة آلاف سنة.

وعلى جدران الكهوف ترك الفنان الأول رسومه الأولى وأولى مغامراته في عالم الفن.. صوراً محفورة بأناقة مذهلة وملونة للفصال والزراف والنور وللرقص والمصيد والزواج والحب رسمها قبل أن يعرف كيف يكتب وكيف يتكلم.

والخيلة. وانتشارهم بين طرابلس والدواخل الصخرانية.

ويقول ابن خلدون إن البربر هم أولاد كنعان ونوح.

أما الزأى الأوروبي الذي يقول بأن الطوارق غينيقيون هزبوا من وجه الإسكندر المقدوني فهو رأى خاطئ لأن وجود هذه القبائل قديم وثابت منذ أيام هيرودوت وقبل الإسكندر بزمن طويل.

ومن طرف الوثائق ما كتبه هيرودوت يصف جبلا سماه بجبل الأطلس يقول هيرودوت :

« وقد وجدته جبلا مرتفعا شديد الانحدار من ناحيته حتى ليستحيل على الناظر أن يرى قمته التي يقطبها الضباب صيفا وشتاء. ويقول سكان الوادي إن هناك على القمة تقوم دولة السماء ويسكن أهل الأتلاتيس ».

ورد هذا الكلام في رحلة هيرودوت إلى شمال أفريقيا ووصوله إلى منطقة طوارق الهجرة في الجزائر... وأغلب الظن أنه قصد بالقمة التي وصفها القمة المعروفة الآن « مونت أودان ».

ولكن خرافة دولة السماء وقارة الأتلاتيس ما لبثت أن تناوها أفلاطون لجعل منها المسرح الخيالي لجمهوريته حيث تصورها جزيرة في وسط البحر يسكنها صفة من المثاليين ويقوم عليها مجتمع غوذجي هو الذي وصفه في جمهورية أفلاطون.

ثم انتقلت خرافة الأتلاتيس لتصبح القارة المفقودة بين أفريقيا وأمريكا التي ابتلعها المحيط وحق عليها عقاب الإله العادل حينما خرجت عن طاعة الله. (قصة أسبى بالحنة وطرد آدم) ومنذ ذلك الحين دخلت قارة الأتلاتيس إلى كتب القبيبات وتحولت إلى لغز مثير... والأصل سطر كتبه هيرودوت في رحلته

إلى طوارق الهجرة :

وهيرودوت يسمى قبائل الطوارق « ناسامون » ناس أمون ويذكر عنها أنها قبائل تصطاد الجراد وتحففه في الشمس ثم تطحنه وتزج الدقيق الناتج بالذبح (وهي عادة موجودة عند بعض الطوارق إلى الآن) .

ويذكر هيرودوت أن ناسامون لهم أيام مقدسة يترددون فيها على قبور أجدادهم لأخذ مشورتهم في أمور الحياة الدنيا أو لسؤالهم عن المستقبل. (وهي عادة مازالت متبعة عند تنسوة الطوارق يبتن إلى جوار المقابر ليحلن بأخبار المفقودين والغائبين) .

ويذكر هيرودوت طريقة تصفيف الشعر وتسريحه عند الطوارق بما يتفق مع الملاحظات المشاهدة حاليا.

وقد لعت أسماء غربية لرحالة ومؤرخين ذرعوا رمال الصحاري وألفوا المراجع القيمة أمثال : البكري... والادريسي... ابن سعيد... ابن قاطيا... أبو الفدا... وابن بطوطة.

يقول ابن بطوطة انه عبر الصحراء الليبية لقبيلة برداما وهي قبيلة من البدو الرجل لا تستقر في مكان وتتناز بأن نساءها جميلات سمينات ويقول فيهن ابن بطوطة انهن أجمل ما رأى من نساء العالم.

ويضرب ابن بطوطة في الصحراء شهورا يخترق فيها مناطق جرداء لاما فيها ولا شجر ونصف لنا مناجم للملح والنحاس ومياه حديدية تغسل فيها ثيابك فيسود لونها... ثم يصف لنا ضحيته لقافلة بها منجاة فتاة من الرقيق... ثم يصف لنا وصوله أخيرا الى منطقة الهجرة ورويته لقبيلة عجيبة. رجالها ملثمون ونسائها سافرات « الطوارق ».

ولم تترك هذه القبيلة أثراً طيباً في نفس ابن بطوطة . فقد استوقفه بعض فرسانها قافلته وأخذوا منها أقشة ويضائع ، وكان ذلك في رمضان . ويقول ابن بطوطة عن حرمة شهر رمضان إنه حتى لصوص الصحارى يتعففون في هذا الشهر عن السرقة فلا يذون أيديهم إلى شيء ولو كان مفقوداً وبلا صاحب .

أما ابن خلدون فينقل ما يرويه عن الطوارق من شهادة الآخرين .

أما الرحالة الأوروبي أنتونيو مالفونتي ، فيصف الطوارق بأنهم جنس راق وفرسان على درجة عالية من النبيل والشجاعة . ويقول إنهم يعتمدون في طعامهم على اللبن والأرز واللحم ، وإنهم ألد أعداء اليهود ، ولا يجزؤ يهودى على الاقتراب من مضارب خيامهم .

ويقول هيرودت إن عبادة الأجداد كانت متبعة في ليبيا القديمة . وبالنسبة للصحراء الليبية القريبة من مصر كانت عبادة إيزيس وتقديم القرابين للشمس والقمر وتحريم أكل الخنزير ولحم البقر طقوساً متبعة . وبالنسبة للجزء الشمالى من الصحراء كانت الآلهة أمثال إله البحر والخصب والمطر تعبد . وكانت القرابين البشرية تقدم في القرن الثالث قبل المسيح .

ومن المحتمل أن يكون الطوارق الأوائل عبدوا آمون . ولكن لا يوجد ما يؤيد ذلك في الرسوم والحفائر القديمة . فلم يعثر إلى الآن على رسم قرص الشمس المعروف .

والرأى الآخر أنهم كانوا يعبدون الحيوان أمثال الثور والبقرة والزراف (العقائد الطوطمية) ، بدليل ما وجد من رسوم جميلة ومفصلة لهذه الحيوانات .

وبالرغم من وجود رسم الصليب في بعض الآثار التاريخية إلا أن دخول المسيحية إليها أمر مشكوك فيه . . وفي رأى ابن خلدون أن المسيحية لم تدخل الصحراء الليبية . . وهو رأى خاطئ لأن المسيحية دخلت غدامس أيام

البيزنطيين والرومان .

ولكن ابن خلدون يقول رأياً مختلفاً في الديانة اليهودية ، فهو يعتقد أن الديانة اليهودية تسالت إلى الصحراء وأن اليهود انتشروا في قبائل الطوارق بالذات .

ويحتمل أن يكون بعض أجداد الطوارق من اليهود ولكن الأمر المؤكد أن الإسلام اكتسح هذه القلة .

وقد دخل الإسلام الطوارق مع عقبة بن نافع وانتشر بين كل القبائل النازحية ، ولكنه بالنسبة لطارق الجبل والدواخل الرجل كان إسلاماً سطحياً . فعظم العادات الوثنية ظلت على حالها وظلت اللغة على حالها وبقى القرآن كتاباً يقرأ بطريقة بيغاية دون أن يفهم ، مثله مثل التعاويذ الغامضة الأسطورية .

وهناك مدارس الدين واللغة العربية والقرآن ، ولكنها قليلة جداً ، وهي بالنسبة للقبائل الرجل غير معروفة .

ومع ذلك فقد ظل الإسلام على ضعفه هو علم المقاومة الذى تجمع تحت رايته الطوارق الذين حاربوا الاستعمار الفرنسى والإيطالى .

والاعتقاد في الجن والأماكن المسكونة والأرواح الطيبة والشريرة التى ترتاد الينابيع والجداول . . والاعتقاد في الأشجار التى تلبسها الأرواح ، أكثر رسوخاً عند الطوارق الرجل من العقيدة الإسلامية الزائرة . .

وشئ مألوف أن ترى رجلاً من الطوارق يرمم شجرة ليطرد منها الجن . . أو امرأة تعلق شسبشياً قديماً على باب الخيمة لتطرد الأرواح الشريرة ، أو تستعمل قرن خروب لمنع الحسد . . أو عجوزاً تباع أحجية وتعاويذ أو جلد

بقرة للوقاية من لدغة العقرب والثعبان ، وهم يشمون جلد بقرة الوحش كعلاج من لدغة العقرب .

والطارق الذي يحلم بأنه يأكل البلح يفسر حلمه بأنه سوف يضرب بجراح . فإذا حلم بتعبان فهو شر مستطير . وإذا حلم بأنه يحمل راية بيضاء فهو قاتل حسن ، وإذا حلم بأنه يحمل راية سوداء فهي كارثة .

وخرافة شائعة أن الذي يضرب بجرح يمنع عن شرب اللبن اعتقاداً منهم أن اللبن سوف يساعد على تكوين الضديد .

ومعظم هذه العقائد هي بقايا وثنية لم يستطع الإسلام أن يحوها من الأذهان .

وقد ظل الطوارق يعيشون حياة مستقلة في أغلب فترات حياتهم ، لم يستطع الغزاة من الفرس والرومان ولا التتار والمكسوس والوندال أن يقتحموا أسوار هذه العزلة لبعدها ولأن مناهات من الصحارى الجرداء كانت تحمي هذه العزلة من كل جانب .

وهذا استطاع الطوارق أن يصنعوا لأنفسهم حياة وعادات وتقاليدهم وأعرافاً وطباعاً انفردوا بها ومازالوا يتميزون بها .

وكلما توغلنا في الصحراء وخرجنا من غدامس إلى أطراف البادية ومراعي الجبال والتقىنا بالطوارق الأول الذين مازالوا يعيشون حياة الفطرة والتنقل بين قبائل الهجارة في الجزائر والسودان والنيجر ، استطعنا أن نتعرف على تلك

الكلمة بالعربية	الكلمة بالتارجية
الأصبع	ايضضى
الأنف	تيباز
القم	ايحي
اللسان	ايلس
الدق	تامرت
الشعر	أهيواف
البطن	تاسا
القلب	اوول
الكبد	أوسا
العقل	تايقى
المخ	أكلكل
الأسنان	أيسنان
الكف	ديكل
الذراع	أفوس
الساق	أبر
القدم	أزره
الأذن	تامام طوج
الأظافر	أسكارن
الظهر	أرورى
الأكتاف	ايظيرن
الرأس	ايغاف

العادات البدائية التي مازالت على حالها لم يهذبها الإسلام . . ومنها تلك الحرية الجنسية التي يتمتع بها الأولاد والبنات . . فقد أن يبلغ الولد سن الخامسة عشرة ويضع اللثام ويصبح رجلا . . يصبح له الحق في حضور « الهال » ، وهو مجلس الكبار حيث يتسامر الكل في جو مختلط مفتوح في شبه حفل يبدأ بعزف الموسيقى (المزاد) ، وتعزفها في العادة فتاة ثم السمسم الغزل فيميل كل شاب على الفتاة إلى جواره يقبلها بحك الأنف في الأنف ويتواعدان على اختلاس اللقاءات في الخلاء . . ويحدث عادة أن تتم اللقاءات المختلسة في نفس الليلة حيث يمارس الأولاد والبنات لعبة الجنس بلا حرج وبلا حمل .

والهبة شئ غير معروف في الطوارق (بحوث الأب فوكو والدكتور فولان) .

وفي حالات الحمل النادرة تذهب البنت إلى الداية فتكتب لها تعويذة تذيبها في الماء لتشرها فإذا لم يحدث الإجهاض قامت بإجهاضها ، فإذا حدثت الولادة يخلق المولود . . والبنت التي يعرف عنها أنها حملت دون زواج ينظر إليها في احتقار من الجميع .

ويسبب حرية العلاقات الجنسية فإن الزواج لا يحدث إلا في سن متأخرة ثلاثين سنة بالنسبة للرجل وعشرين سنة بالنسبة للبنت .

وتبادل الجنس ليس غارا عند الطوارق وإنما العار أن يكون ذلك بين رجل وجاريته أو امرأة وعبيدها .

ومن الصعب الحكم على السلوك الجنسي للمرأة بعد الزواج من حيث الحيانة والوفاء . ولكن من المعلوم أن عقاب الزانية هو الموت . . ومن المعلوم أيضا أن الرجل قد يخون زوجته مع جارياته وعبيداته . . وفي حالة حمل إحدى هذه الجاريات تكون فضيحة ويحدث في مثل تلك الحالات أن تغضب الزوجة

عند أهلها ولا تعود إلا في حالة دفع تعويضات مادية كبيرة .

ومن التقاليد العجيبة أن لقاءات الجنس بين العشاق تتم في خلوة وخصوصية ، فإذا ضبط عزول هذه الخلوة فعلى العشيق الذي افتضح أمره أن يبادر بإهداء العزول هدية فورية ، وإلا فإن العزول يرفع اللثام كاشفا عن شخصيته ويصبح له الحق في أن يحل محل غريمه في خلوته . .

مجمع
غريب
الحن
الخلع

والزواج بين فارس وجارية أمر مستهجن جداً ومشين.
والفرسان لا عمل لهم إلا الحرب وحراسة القوافل والسطو على الأعداء،
وهم يحتقرون الحرفيين ويعتبرون العمل اليدوي وضعيفاً.

ونستطيع أن نعرف الفارس من مشيته، فهو يختال في خطواته ويختال في
كلماته ويتأنق في ملبسه وأحياناً يلبس ثامناً أحمر زبادة في الأناقة.

ورجل الدين «شريف» من الكلمة الفربية شريف.. له مكانة محترمة في
قبيلة الطوارق، وهو يعني من الضرائب، ويعتبر في مستوى الفارس بالنسبة
للمكانة الطبقية.. وهو الذي يدرس القرآن والشريعة الإسلامية لأطفال
القبيلة.

والعبيد والجواري وكلهم رقيق وأسرى غنمتهم القبيلة في حروبها أو اشتريتهم
من تجار النخاسة.. يعاملون بإنسانية.. فالعبد يمكن أن يمتلك رءوساً من الماشية
أو حصاناً، وهو إذا بلغ سن الزواج فإن سيده يعطيه مهراً ليتزوج.. وإذا
أحب السيد من جارية فإن الابن الذي ينجم من العلاقة يحق له الميراث..
ويستطيع العبد أن يخرج من خدمة سيده ليلتحق بخدمة سيد آخر بسبب سوء
المعاملة.. وإذا تزوج السيد من جاريته فإنها تصبح حرة.. وبعد إلغاء الرقيق
تحول العبيد إلى خدم وظلوا ملازمين لقبائل ساداتهم..

أما أصحاب الحرف فهم فئة محتقرة وكل من يزاول عملاً يدوياً يحتقر عند
الطوارق.. والطارق يخاف من الحداد ومن كل من له صلة بالنار أو من يطرق
المعادن ويظن أنهم على صلة بالشياطين والجنان ولذلك يسكن بعيداً عنهم
وينجنبهم.

والحلاق عند الطوارق يحلق الشعر ويخلع الأسنان ويقوم بالعمليات الجراحية
الصغيرة كالطهارة وإيقاف النزيف وعلاج الجروح.

يجتمع الطوارق مجتمع طبق.. على رأس جميع القبائل نجد الأمير «أمينو
كال» وهو الحاكم الأصلي لجميع القبائل ويصل إلى الحكم وراثة عن أبيه
كالنظام الملكي.. ورمز الامارة طبل كبير يعلق على باب خيمته ويقصر هذا
الطبل عند قدوم الضيوف أو في الحفلات أو في الحروب.. وخرق الطبل هو
أكبر إهانة يمكن أن تلحق بالأمير.

والأمير هو الذي يعلن الحرب ويدير خططها وهو الذي يفض الخلافات بين
القبائل، وله خليفة ينوب عنه في غيابه.. وهو يتقاضى الضرائب من جميع
القبائل.

ويلى أمينو كال في السلم الطبقي شيوخ القبائل ثم الفرسان ورجال الدين ثم
الرعاة ثم الحرفيون وفي القاع نجد العبيد والخدم والجواري.

والحرفيون يعتبرون من جنس مشبوه ، وهم يهتمون بالتجسس أحياناً وبالحيانة ولكن لا أحد يجرؤ على قتل حرفي لأنه يخشى من انتقام الجن لروحه .

والحرفيون أذكاء وحكماء ، وفيهم من يتقن الكتابة ومن يلقي الأقاصيص والحكايات وبعضهم يرقى إلى درجة مستشار الأمير .

وهم يثلثون كبقية الطوارق ، ولكن لهم لغة خاصة سرية يتخاطبون بها .
وهم تعاويد وطقوس خاصة .. وهم لا يزيدون في مجموعهم عن خمس أو ست عائلات .

والمعتقد أنهم من أصل يهودي وأنهم مهاجرون من فلسطين ، يدل على ذلك تلك المطروقات الفضية الأنيقة الراقية والمفاتيح والأفقال المعقدة التي يصنعونها والتي لا تتناسب مع الحياة البدائية التي يعيشها الطوارق ، وتدل أيضاً عاداتهم العنصرية في عدم الزواج من خارج جنسهم .

واسم هذه الفئة العاملة باللغة التارجية « إيتادين » أي (من لا اسم لهم) وهذا إيمان في تحقيرهم .

وبعض قبائل الطوارق غنية نسبياً . ففي قبيلة مثل كيل هجانار أكثر من عشرة آلاف رأس من الإبل ، وفي قبيلة أخرى مثل داج رالى لا تزيد الإبل على ألف رأس ، بينما قبيلة ثالثة هي التأتويك لا تزيد ثروتها على ثلاثمائة رأس .

والطوارق يعتمدون في حياتهم على الرعى والصيد متنقلين من ودا إلى واد إلى حيث تجدود المرعى ويكثر المطر ، وأهم محصول طبيعي يتاجرون فيه هو الملح ، يحملون به القوافل إلى السودان لتعود بالتالى محملة بالأنثى والحبوب . فإذا شح المطر وجف المرعى انتشروا في الصحارى والجبال يقطعون الطريق على القوافل .. فإذا استمر الجفاف نزحوا إلى السودان .

وهم في الشتاء يفضلون سكنى الوديان المنخفضة في أحضان الجبال التي تحميهم من الرياح .. وفي الصيف يفضلون سكنى الأعالى والقمم حيث الجو طليق .

وكل قبيلة لها مضارب خيامها ولها مجالاتها الخاصة التي تتحرك فيها وهي تعود من موسم لموسم لنفس الأماكن التي بدأت منها .
والخيام تصنع عادة من جلد الماعز ، يدهن بالزبد وبمادة حمراء لوقايتها من النمس والمطر .

والمعتاد أن ينام الرجل في شرق الخيمة ومعه الأولاد بينما تنام الزوجة في غربها ومعها البنات .

ولا ينام على سرير إلا الأمير وشيوخ القبائل .

أما المطبخ فهو دائماً خارج الخيمة وهو عبارة عن موقد حوله بعض الطوب والحجارة لحمايته من الريح .

وهم لا يستخدمون حجارة البازلت السوداء لأنهم يعتقدون أنها مسكونة بالجن والسبب أنها تفرقع بصوت شديد بتأثير النار .

والنار عند الطوارق لها أسطورة مقدسة .. فهم يقولون أن النار خلقها الله للإنسان ليطهى عليها طعامه ولكن الشيطان عرف سرها وسرقها ثم أعطاها لصديقه الحداد ليصنع بها الحديد ولهذا خلق الله الجحيم وخصصها للشيطان عقاباً له على سرقة .

وهم لا يوقدون النار في داخل الخيمة وإنما دائماً خارجها .

والأثاث عبارة عن صندوق ومخللة بها ملابس وعدة أطباق وملاعق خشبية وأوتاد لتثبيت الخيمة وإناء للناء وطاسة لحلب اللبن وأكواب وفناجين .

والمرأة هي التي تنصب الخيمة وهي التي تفكها وتحملها على الحمير وهي التي تصنع الأدوات الجلدية والأطباق والأوتاد الخشبية . . وهي تستعمل في تنقلاتها الحمار ولا تتركب الإبل إلا من كانت زوجة لفارس أو أمير .

وكل قبيلة تخزن ما عندها من فائض التمر والحبوب والمواد الغذائية في مخايئ وكهوف الجبل . وعندهم عقيدة أن الله يرعى هذه المخايئ . ويسهر عليها بنفسه . . وهم يهاجرون ثم يعودون إليها فيجدونها على حالها ، فالتارجي لا يمد يده أبداً إلى مثل تلك المخايئ . . وعقاب السارق في مثل تلك الحالات شديد .

وهناك أكثر من ستة أصناف من الأعشاب الجبلية والجذور مما يأكله التارجي أثناء الطريق هو ومواشيه ليهدى جوعه .

واللبن والزبد والجبن والحبوب والتمر هي غذاؤه الرئيسي . وهو يأكل اللحم في حالات قليلة حينما تشرف إحدى مواشيه على الموت فيذبحها حينما تحف المراعى فيذبح الناقة التي يراها تموت جوعاً أمامه . . وهو يأكل الأرناب والغزلان والجراد . . والجراد المشوى طعام فاخر عنده . . أما لحم الدجاج فيعتبر نجسا مثل الخنزير وبالمثل السمك . .

ولا يجوز أكل ذبيحة لم يقرأ عليها اسم الله ولم تذبح وفقاً للشرعية الإسلامية . وواضح من أنواع التحريم أنه يجمع بين التحريم الإسلامي والتحريم الوثني .

والأكلة الشعبية هي نوع من العصيدة باللبن .

وهم يستعملون الجبن المجفف والطاطم والبصل في تصنيف ألوان من الصلصات . وفي حفلات الزواج والحفلات الدينية تذبح ناقة وتُسوى على النار وتقدم مع الكسكسي وتحفظ الرأس والعنق للنساء ، ويقدم الفخذ والموزة والضلوع للضيوف .

وهم يأكلون بالملقعة . . وعادة الأكل بالملقعة عادة غريبة بالنسبة للحياة البدائية التي يجباها التارجي . ولكن تفسيرها هو حرصه على عدم رفع اللثام أثناء الأكل وبالتالي احتياجه إلى وسيلة كالملقعة لدس الأكل في فمه .

والأبل والماعز والماشية والحمير والكلاب هي الحيوانات التي يربّيها التارجي .

وهم في العادة يحتمون إبلهم بعلامات خاصة . كل قبيلة لها علامة مميزة تحتمها على رقبة الجمل أو فخذ بظلاء آخر .

ورأس إبل عندهم أثن من وزنة ذهب . أما الحمير فلا يهتمون بها ، وأحياناً لا تعرف القبيلة عدد حميرها وأحياناً حينما يشع المرعى تترك القبيلة جزءاً كبيراً من حميرها وترحل .

وهم يصطادون الغزال وبقر الوحش والزراف . . يخرج أربعة من الطوارق معهم عشرة كلاب في فرقة صيد ويطاردون الفريسة حتى تسقط إعياء ، وهي في حالة الغزاة وسيلة كافية . أما بقر الوحش ، وهو حيوان شديد البأس ، يدافع عن نفسه حتى الموت فيحتاج الأمر إلى حصار وقتال بالحراپ أحياناً يذهب ضحيته عدد من الكلاب أو الصائد نفسه .

ولكنهم الآن يستعملون البنادق في كل شئ بدرجة تهدد وحوش الصحارى بالانقراض .

والتقاليد المتبعة إذا طاردت قبيلة حيواناً في أرض قبيلة أخرى واصطادته أن تعطى جلده ورأسه وتضيئاً من اللحم للقبيلة صاحبة الأرض .

والطوارق رحل لا يزرعون الأرض احتقاراً للعمل اليدوي واحتقاراً للاستقرار ولكن في بعض الأماكن حيث يغزر المطر وتكثر العيون الجوفية تجد

التارجي يزرع القمح والشعير والجزر والعدس والبصل والبطيخ والشمس . .
وتجد حدائق من التين والعنب والتفاح .

لكن مثل تلك المزروعات تصيح تحت رحمة الحر والبرد والعواصف
والسيول والجفاف وجذب الأرض وافتقارها مع تكرار الزراعة . . والتارجي
ليس عنده طول بال الفلاح ولا ضيره ، وهو ما يلبث أن ييجز الأرض التي
أجديت دون أن يفكر في إصلاحها .

وهو حينما يزرع قليلاً كل لا يبيع .

وسعادته وهو يضرب في الفلوات تعدل محصول ألف فدان . . يكفي ما يحلب
من ألبان إبله وما يقطف من بلح وتمر في الطريق وما تجود به المرعى ، فإذا
جف فأرض الله واسعة .

وليست من عادة التارجي الاغتسال يومياً بسبب شح الماء في الصحارى ،
وهم يقولون ان الاغتسال يومياً ضار بالبشرة وهذا صحيح نظراً للملوحة المياه
وجفاف الجو كما أنه يؤدي الى تشقق الجلد . . وهم لهذا يستعملون الزيت
للتنطرية . . ويتوضأون للصلاة بطريقة التيمم (بالرمل الجاف بدون ماء) .

ولكنهم شديداً العناية بأسنانهم فهم يستعملون السواك والمضمضة بالماء عدة
مرات بعد الأكل .

وهم يحلقون للأطفال رؤوسهم الا خصلة يتركونها في الوسط .

والنساء يصفرن شعورهن ضفائر كثيرة على الجانبين ويستعملن الزيت
للشعر .

والنساء والرجال يحلقون شعر العانة ويقصون أظفارهم ويكحلون عيونهم .

ومخلفات الشعر والأظافر تدفن في مكان بعيد حتى لا يستنجر عليها أحد أو يقرأ
عليها تعاويذ مهلكة .

والوشم غير معروف لكن المرأة تستعمل الأحمر للزينة .

وفي المهرجانات قد تجد امرأة تنقش على وجهها رسوماً عجيبة (طريقة
المبى) . وترقص كنوع من التهريج أو كبقايا طقوس وتنبؤ .

والمرأة التارجية أقصر من الرجل وأكثر سمرة واستدارة وهي ذات عيون
واسعة كحيلة وجبهة عالية ويدين دقيقتين رقيقتين . . والسمنة عنصر هام في
الجمالية الجنسية عند النساء وهن يتوسلن اليها بكل طريقة ويأكلن أنواعاً
خاصة من الأعشاب يعتقدن أنها تسمن (كالمفتقة عندنا) .

علاج
الامساك
بشجر
الاجرجر

والأمراض عندهم قسبان : مرض جسدى يعالج بالأدوية ، ومرض روحى يعالج بالسحر « أمى كيللو » .

وعلاج من تلبسه الأرواح الشريرة هو إلقاء الرعب في قلبه عن طريق رقصة خفيفة بالأقنعة تتخللها الصرخات والطبول حتى يفقد الوعي ويدخل في غيبوبة تخرج أثناءها الروح الشريرة وتفر مذعورة ولا تعود .

وهم يمارسون الجراحات البسيطة كالطهارة وعلاج الجروح وتجبير الكسور والقطع الحادث بعد الطهارة بدهن عادة بالزبد .

والأنافة وحسن المظهر مسألة غاية في الأهمية بالنسبة للتأرجى . . أهم من الطعام أن يتأنق ويختال . .

والطوارق أصحاب قامة طويلة وفرع باسق وأكتاف عريضة ، وهم يرفعون رموهم في اعتزاز حينما يمشون كأنهم أمراء أسطوريون . ويلبس الواحد منهم سروالا واسعا يغطي قدميه ، وفوق السروال عباءة فضفاضة بيضاء أو زرقاء أو ملونة . وعلى الرأس تلبية تلف كالعمامة وتغطي الرأس ثم تنسدل كاللثام فوق الفم والأنف فلا يبقى ظاهرا منه إلا العينان السوداوان اليراقتان . . وفي القدمين يلبس صندلا .

والرجل يتجلى بالخواتم الفضية المزركشة والأساور المنقوشة من حجر الشيست . . وعلى الأساور يكتب عادة عهدا بالوفاء الحبيبة أو دعوة بالقوة والتوفيق في القتال . .

وهم يتنافسون في حمل الأكياس الجلدية الأنيقة . . جراب جلدى للولاعة . . وجراب جلدى للسواك . . وجراب جلدى للإبر . . وجراب جلدى فيه آية قرآنية أو تعويذة . . يحملها في سلسلة مدلاة على صدره . .

الطوارق أطباء بالفطرة .

وهم يطيبون المرضى بالفصد والكى والحقن الشرجية والعلاج بالأعشاب .

وعندهم ما يشبه تذكرة داود وعلم غزير بالأعشاب القابضة والمسهلة والمخدرة والمدرّة للبول والمقوية للقلب ، ويستعملون الورق المغل والجفف والمسحوق والبذور والجذور بفطنة ربما . . وصلت إليهم عن طريق العرب .

وهم يستعملون لبن الحميز كعلاج للسعال .

ويجففون شجرة الأجرجر ويدقونها ويستعملونها علاجاً للإمساك .

ويداؤون الإسهال بشجرة النبق .

وبالنسبة للنساء هناك تصانيف أكثر من الخلى . . هناك خواتم من الفضة كبيرة ذوات القصوص وأحيانا بدل الفص نجد علبة صغيرة للعطر . . وتلبس المرأة اثنين أو ثلاثة من هذه الخواتم الكبيرة في اليد الواحدة . . وهى دائما من الفضة . . لأن الذهب مكروه عند الطوارق ولا أحد يتحلى به لأنهم يعتقدون أنه مجلبة للشر والطمع .

وهناك رواية يرويه مؤلف من تيبوكتو عن رئيس الطوارق (أكيل) الذى كان يرفض أن يلمس الذهب بيديه لأنه يجلب النحس .

والأساور المنقوشة من الفضة والمخللة بقصوص اللؤلؤ . . والأساور الزجاجية والأساور الجلدية المخللة بقصوص كريمة . . والقلائد التى تتدلى من العنق وفيها فص من العاج . . والكردان . . والبنتنيت ذو الفص الأحمر من المرجان . . والدلايات الفضية المزركشة . . كلها حلى ضرورية بالنسبة للمرأة . . والحلق يكون عادة من الفضة وكبير ويتدلى على العنق .

وفي الشعور والصفائر حلى أخرى تتدلى على الظهر . . هذا عدا الأحجية الفضية وجراب الكحل وجراب الإبر .

والنساء لا يلبسن هذه الخلى إلا فى الأفراح والمهرجانات .

أما فى الأيام العادية فتودع هذه الخلى فى صناديق ذوات أقفال حديدية يعمل التارجى مفتاحها فى حبله وترخاله .

والمرأة التارجية صانعة ماهرة ، فهى التى تسلخ الجلد وتدبغه وتصقله وتصنع منه الخيام والخلى الجلدية والصنادل والحقائب . . وهى أيضا التى تصنع من الخشب أوتاد الخيمة والصحون وأواني الحليب . . وهى التى تصنع من القش القبعات والخصر . . وهى التى تغزل من فراء الماتية الحبال المتينة .

وهى تؤدى عملها دائما بدرجة عالية من الدقة والتفنن .

والفنيات ذوات المنيث العريق يتفأخرن بما تصنع أيديهن من تلك الأدوات ولا يتركنها للعبيد ، وإنما يصنعنها بأيديهن ويقدمنها هدايا حب لأصدقائهن . وصناعة الجلد والخشب والقش والصوف هى الصناعات التارجية الأصيلة ولها تقاليد وأسلوب وخصائص وملامح مميزة .

أما الحدادة وصناعة المطروقات وتشكيل الفضة والنحاس وصناعة الأقفال والمفاتيح واللواحات فيختص بها « الإبتادين » كما ذكرنا ، وهم من أصل يهودى . . وهم يعتمدون على صهر العملة الفضية كمصدر لحام الفضة . . أما الحديد فن صهر الحردة والعلب الفارغة التى يجمعونها من الطريق . . والنحاس من صهر الخرطوش الفارغ . . ويصنعون منه الأقفال والسكاكين والإبر والملاقط والأدوات الدقيقة .

أما الأسلحة فهى مستوردة فى أغلب الحالات . . لكن بعض القبائل التى تسكن فى أماكن يوجد بها خام الحديد بكثرة تشتغل بتعدين الحديد وتصنع الحناجر والحراپ والأسلحة .

أما صناعة الفخار فقد استخدمها العبيد . . وهم الذين أدخلوها للطوارق . . وهم الذين يصنعون الطواجن الفخارية والأواني المختلفة .

ونظام القوافل فى الطوارق يختلف عن نظام القوافل عند العرب . فالطوارق يركبون دائما فى مقدمة قوافلهم لاستكشاف الطريق ويتركون وراءهم مرشدين يوجهون الإبل للاحتفاظ بالصف (والسبب هو ارتفاع وهبوط وتعرج الطرق الجبلية) . .

بينما يركب العرب فى مؤخرة قوافلهم ويتركون الإبل شبه حرة دون مرشدين

لنسبب واضح أنهم يسكنون فلولات منبسطة لا عوائق فيها وهم لهذا يكشفون الطريق كله من مكانهم في المؤخرة ويوجهون خط السير دون صعوبة تذكر ويدعون القرصة للإبل لتنتقل وراء العشب كيفما شاءت دون قيود الصنف . فالأعشاب شحيحة ومنقرقة في الصحارى وليست بالكثرة ولا التركيز كما هي في الوديان الجبلية ..

والطوارق أحياناً يؤجرون لحراسة القوافل التجارية مقابل نصيب معلوم من البضائع ، وأحياناً يعطون الأمان لقافلة تمر في أراضيهم مقابل ضريبة محددة ، وأحياناً يقدمون إبلهم ومرشديهم للقوافل مقابل عمولة .. وهي مناسبات تشكل لهم مصادر سخية للدخل .

ولم تكن هناك عملة مصكوكة خاصة بالطوارق .. وإنما كانوا يتعاملون بالمقايضة ويعتبرون مقطع القماش وحدة للتعامل .. ولكن الجنيه التركي الذهب كان عملة مقبولة .

والقاعدة عند خروج الطوارق بقوافلهم للمقايضة في السودان أنهم يتركون النساء والشيوخ والأطفال في مضاربهم ولا يخرج للارتحال إلا الرجال القادرون .

وقطع الطريق على القوافل السرقة والسطو هو عادة بعض قبائل الهجارة وليس كلها ، والفرسان يحكون عن هذه المغامرات في مجال التفاخر والزهو أمام النساء .. وهم يقومون بها بدافع سلب الحلى والثياب الجميلة لإهدائها للعشيق والحبيبات .

والصيف هو الموسم المختار لمثل تلك المغامرات لأن الجفاف والحرق وشح المرعى يدفع القبائل للفرق بحثاً عن العشب .

وتوضع الخطة في المساء ثم يخرج الرجال في ارتحال سريع بغية انقضاضة مفاجئة قبل الفجر على خيام القافلة .

وبعد معركة سريعة يفر الحراس عادة ، فيفقد اللصوص الإبل ثم يدخلون الخيام ويجمعون ما يجدون من حلى وثياب ويفرون .

ويحدث عادة أن تنتفض القبيلة المعتدى عليها في هجوم مضاد يرصدون له كائن خاصة عند الآبار التي يعرفون أن اللصوص سيردونها في طريق العودة . ويحدث الالتحام ويقع قتل وجرحى كثيرون .

وأحياناً يحدث اتفاق سلمي وتدفع القبيلة المعتدى عليها ضريبة محددة من الإبل والثياب في مقابل تسوية معقولة .

وقطع الطريق على القبائل السودانية يكون عادة بهدف خطف البنات والأولاد لبيعهم في أسواق النخاسية أو استخدامهم كعبيد .

أما الحروب المنظمة بين القبائل فأكثر ندرة من حوادث قطع الطريق وهي تحدث عادة لأسباب سياسية .. تنازع على السلطة أو خلاف حول المراعى .

وهم يختارون الشتاء موسماً لحروبهم حيث تكون كل قبيلة قد جهزت نفسها بخزين من التكوين والمواد الغذائية .

ومن تقاليد الحرب ألا يعتدى على النساء الأسرى .

والاعتداء على امرأة أسيرة وضمة عاز لا تمنح في جبين المعتدى وقبيلته .. وكثيراً ما حدثت سلسلة من الحروب الانتقامية بسبب مثل هذا الحادث .

والأسلحة المستعملة في الحروب هي السيوف والخراپ والحناجر والبلط . أما العبيد فيسلحون بالعصى ولا يحمل الدروع إلا النبلاء والرؤساء والقواد .

وقد دخلت البنادق والمسدسات والرساتبات الحروب القبلية بعد دخول
الفرنسيين .

وأول رحلة غربي اكتشف الطوارق هو الإنجليزي جوردون لانج ١٨٠٠
الذي بدأ رحلته من طرابلس إلى تمبوكتو عابرا اعدامس وفي الطريق تعبرف
على الشيخ عثمان « شيخ منطقة الزاوية » الذي دله على مسالك الصحراء .
ولكنه قتل قبل أن يتم رحلته . قتله الأديام العرب الذين كانوا يراقبونه .

وفي سنة ١٨٤٩ استطاع الألماني هنري بارت أن يتم الرحلة التي لم يستطع
زميله الإنجليزي اتمامها . فوصل إلى تمبوكتو ثم عاد إلى طرابلس مارا بكل
قبائل الطوارق في المنطقة . . وبذلك دخل التاريخ مع الرحالة العظام أمثال
لفنجستون وستانلي وبراوا .

وأول مرجع واف عن الطوارق هو ما كتبه دوفيريير الفرنسي في رحلة
استغرقت ٢٨ شهرا ، وافقه فيها الشيخ عثمان والمريس التارجي أخنوخ .

وقد حدث بعد ذلك أن دعا دوفيريير الشيخ عثمان إلى باريس وقدمه إلى
نابليون الثالث .

وأعقب هذا اتفاق تجاري بين الفرنسيين في الجزائر وبين الطوارق . .

وبعد ذلك بدأت المقاومة ، فرفع الطوارق المسلمون شعار « لا كفار
ولا مشركين في بلادنا » . . وبدأ التقتيل يطارد كل بعثة فرنسية تحاول اختراق
الصحراء .

وتوقفت البعثات عشرين عاما .

وفي عام ١٨٩٩ عاد الرحالة فوريد ومعه ثلاثمائة رجل مسلح ليقتحم قلعة
الصحراء . . وهذه المرة استطاعت البنادق الحديثة والمسدسات المتعددة

الطلقات أن تقتحم القلعة ، ورفع فوردي العلم الفرنسي على واحة عين صالح
وأعلن احتلالها .

وحاول الطوارق بقيادة « تيت » الهجوم على الفرقة الفرنسية ولكنهم عادوا
وقد تركوا وراءهم سبعين قتيلاً .

وبعد ذلك بدأت القبائل التارجية تعلن خضوعها واحدة بعد أخرى .

اللغة
البربرية
و
البربر

وأمام الظلم والاستعمار يهب الكل .. كما يهب غوما العربي يهب أخيا
التارجي وينتفض سليمان الباروني البربري .

وقد عرفت القاهرة سليمان الباروني حينما كان يصدر جريدة الأسد
الإسلامي .

وقد أطلق سليمان شعر لحيته ورأسه وأقسم ألا يحلقه إلا حينما يخرج آخر
جندي إيطالي من أرض الوطن .. وقاد الكفاح الليبي ضد الاستعمار الإيطالي
وسافر إلى تركيا عم الهند ثم توفي في بباي وما زال له فيها قبر يزار .

وفي اللغة البربرية يستعمل حرف (ت) للتأنيث كما في العربية :

ديك : زبيط

دجاجة : تريبط

حصان : أجمار

فرسة : تجمارت

وفي نصريف الأفعال يضاف حرف (و) ليدل على الماضي ويضاف حرف
(أ) ليدل على الأمر وحرف (س) للمستقبل كما في العربية .

يقتل : يناغ

قتل : ينغو

سيقتل : سينغ

أقتل : أنغ

وهناك شواذ مثل فعل يأكل وفعل ينام :

بطول الشمال الأفريقي .. في ليبيا في جبل نفوسة وزواره وفي جنوب تونس
وفي وادي مزاب بالجزائر نجد اللغة البربرية والبربر .

وقد رأينا أن اللغة البربرية تدخل في تكوين اللغة التارجية وتدخل في
تكوين اللغة الغدامسية وتدخل في لهجات سكان الدواخل الليبية .

وقرأنا في التاريخ أن البربر هم أصل الطوارق ، وفي إحدى النظريات أنهم
أصل الفراعنة أيضا .

وقد استطاعت الصحراء الليبية أن تذيب العرب والطوارق والبربر في
سبيكة واحدة متناسقة ذات وحدة وطنية .

الكلمة العربية	الكلمة البربرية
الأبيض	مل لل
الأسود	زطف
الأحمر	ازفاغ
الاصفر	أوراغ
أنا	نيتش
هو	نيت
أنت	شك
هم	نيتن
بأكل	تيت
بنام	يططس
يشرب	يساو
يقتل	يناغ
العصفور	الشيبيو
الدجاجة	نيانيط
الصقر	ابرن
الأنمي	تليقساء
العقرب	تفاردنت
العنكبوت	أوتيلت
الدودة	تگيتشا
النور	فوناس
البقرة	تفوناسيا
حمامه	تاجحات
الصقر	ابرن
الكبير	أزعلوك
الصغير	أمران

يأكل : يتت

أكل : يتشو

كل : انش

سوف يأكل : سايش

وفي فعل بنام يستخدم التخفيف فيحذف حرف (ط) للدلالة على الماضي :

بنام : يططس

نام : يطس

سينام : سيططس

نم : اطس

وللجمع يضاف حرف (ن) :

جمل : الغم

جمال : ايلغمن

حصان : اجمار

أحصنة : اجمارن

ديك : زبيط

ديوك : أيزطن

ذئب : أوشن

ذئاب : أوشانن

ومن الأغاني الشعبية البربرية التي يغنونها في الأعراس مثل أغنية « مبروك عليكى يا عروسة » عندنا . هذه الأغنية وكلماتها بالعربية :

رأيتها نائمة وشعرها متناثر حولها

والأسطورة تلمع في يدها

كانت متكئة

ونظراتي تحجج إليها

كما تحجج نظرات المؤمن إلى مكة

بل أكثر . . استغفر الله

رأيتها تسير

وعودها ينساب كالسفينة

معبأة بكل ما يحظر ببالك

من عنبر وعطور وبلغ جميلة

وكلماتها بالبربرية :

زر يقطط قططس

لفط يتنس بمحل وس

أدبلج دوفنتس ييجص

زر يقطط تنكا

ديس اشتحت خزان مكا

لا يتل ما يلبغ

زر يقطط تيجور

الجدنس أما البابور

يا سباسسلعت يشور

أهلا تتلد يلا ديس

والأعراس الشعبية لها تقاليد طريفة عند البربر .

أول يوم في الفرح ويسمونه فرش الحاضرة « إيساين جريتلت » يطلقون الزغاريد والبخور وتغنى فرقة من العبيد « وكل المغنيات والراقصات عبيد سود وليسوا من البربر وهم نسل الرقيق القديم الذي اعتنق وظل يخدم سادته وبنوارت هذه الخدمة أبا عن جد » ، والبربرية الأصيلة وهي عادة بيضاء وأحيانا شقراء لا تغنى ولا ترقص وإن كانت بعضهن زجالات وشاعرات .
وفي اليوم الثاني من الفرح تقدم الصرة وبها الكسوة والخنة والسواك والبخور تحملها جارية في موكب زغاريد من بيت العريس إلى بيت العروس .

وفي الليل تقام حفلة ساهرة في بيت العريس . . رقص وغناء وزغاريد . . ثم يتقدم أحد المغنين العبيد ويعدد محاسن المعازيم على الطيلة في مقابل النقطة « ايريج » وفي ثالث يوم وهو يوم مشهود يشرف السلطان « العريس » في المساء مع حاشيته ويجلس وعند قدميه يجلس عبيد . . وفي نفس الوقت تشرف السلطانة « العروس » لتجلس مع أترابها من البنات .

وتطول جلسة السلطان وهو يتلفت حوله في الأظلة (وهذه الأظلة جزء من التكايد) ، ثم يد يده إلى العبد الجالس عند قدميه فيعطيه زجاجة عطر ويمنحه منحة مالية وبذلك تفتتح الحفلة ويبدأ الرقص والغناء .

وفي الليل يسير السلطانة في زفة وتعمل لفة على قدميها في البلدة على ضوء المشاعل وأنغام وزغاريد فرقة العبيد . . والأغنية التي يرددونها في تلك المناسبة :

بالأيا نروح

ندرتنر تام طوح

ومعناها . . هيا يا سيدتي . . اسرعي الخطو فاليبت بعيد .

وفي ليلة الدخلة يسير موكب يتقدمه أقرباء العريس إلى بيت العروس ويأخذون السلطانة إلى بيت عريسها . . وأثناء الطريق يطوق العبيد الموكب ويحجبونه بلاءة كبيرة تحفبه عن أعين الفضوليين .

والبربرية لا تزوج إلا بربريا .

والحب العذرى عندهم موجود ولكنهم يحافظون جداً إلى درجة التزميت . فالبنات تحقن وراء حجاب ولا تختلط بالرجال ولا يستطيع أن يختلي حبيبان في خلوة . . والتعارف لا يزيد على نظرات مختلسة .

والأم هي التي تستطلع وتختار لابنها ثم يتقدم الأب ليخطب ويكتب الكتاب بهر رمزي ٢٥ قرناً كما هو متبع في الشرع ثم يشترك الزوجان في الأناث والجهاز .

وبالنسبة للموت تكتفي المرأة بوضع وشاح أسود حول رأسها لمدة أربعة أشهر وأحياناً وشاح أحمر « افكاي » . وتجتمع النساء في مجموعات ليكن « دسوع الرحمة » ويشترك الجيران في جلب الطعام لأهل الميت ليأكل المعزون . . وفي اليوم الثاني تذبح ذبيحة توزع على الأهالي وتبلى الختمة لمدة ثلاث ليال « ايمفران » .

والجتماع البربري يجتمع استقرار يعتمد على الزراعة (الحبوب والزيتون والتين والرمان) . وهناك صناعات غزل وصناعات جلود وأحذية يحترفها بعض البربر . . ولكن صناعة الحدادة تتوارثها أسرتان كلتاها غير بربريتين .

وطبقة الصفوة الرائدة هم الموظفون الإداريون وفقهاء الدين ويسمونه « العزابة » . وهم الذين يقومون بالإفتاء وتعليم القرآن والشريعة وكتابة عقود الزواج والطلاق .

وهناك قلة من كبار الملاك .

ومستوى المعيشة مرتفع نسبياً بين البربر والإقبال على التعليم كبير لأن كل واحد يحلم بأن يصبح « عزابة » .

والبوتاجاز والنلاجة والتليفزيون والترازسيستور والكاديلاك والبويك دخلت جبل نفوسة .

أما العبيد والسود فيؤلفون طبقة داخل بعضهم ، تحترف الزراعة والرقص والغناء والخدمة في البيوت .

ويغنى السود في أعراسهم أغاني تكشف عن ماضيهم الطويل الأليم .

باباي من كاوار

وأمي خادم

واللي جرى لي ما جرى لبي آدم

باباي من كاوار

وأمي حرة

واللي جرى لي ما جرى للضره

ولكن بعض السود المحظوظين استطاع أن يتعلم في الجامعة .

وبعضهم دخل الجيش والبوليس .

ولا يوجد مسيحيون بين البربر .

وكلهم يحافظون إلى درجة التزمّت .

وهم يتبعون المذهب الأباضي .

والمذهب الأباضي يختلف في بعض شكليات قليلة عن المالكى والتنافى والحنى ، مثلاً عندهم لا يد من البسملة مع كل سورة .

والصلاة تبدأ بدون رفع اليدين إلى جانبي الرأس .

والتشهد بدون حركة الأصبع .

والخلافة تجوز من خاريج البيت الهاشمي لأن شرطها هو الكفاية الخلقية

والدينية وليس الدم الهاشمي .

وفي نظريهم أن علي بن أبي طالب أخطأ حينما قبل التحكيم في واقعة الجمل .
وقد ثبت أن الواقعة حدثت بين جيش معاوية وجيش علي . . واكتشف معاوية
بذكائه أن فرصته في النصر قليلة فأمر برفع المصاحف على أسنة الرماح وطلب
التحكيم .

وفي نظر الأباضية أن علياً أخطأ بقبول التحكيم لأنه صاحب حق في
الخلافة . وبصرف النظر عن هذه الفروق الشكلية فإن البربر شديدي الإيمان
وتبديرو التسك بأخلاقيات الإسلام ، وهم ودعاء أمناء قلماً يصل بينهم تسجار
أو خلاف إلى درجة البوليس ، لأنهم يحملون أكثر مشاكلهم على المستوى العائلي
وعندهم كلمة « رجل جيالى » مرادفة « لرجل أمين » .

الحروف الابجدية البربرية (التيفيناغ) وهي تشبه الحروف النارجية

ل	⊙	⊙
خ	⊕	⊕
ش	+	+
و	^	^
ط	≡	≡
ر	#	#
ي	3	3
بشت	⊕	⊕
يفت	+	+
يست	⊕	⊕
يرث	⊕	⊕
ينك	⊙	⊙
يضمث	⊕	⊕
ينت	+	+

⊙	⊙
⊕	⊕
+	+
^	^
≡	≡
#	#
3	3
⊕	⊕
+	+
⊕	⊕
⊙	⊙
⊕	⊕
+	+
⊕	⊕
⊙	⊙
⊕	⊕
+	+

⊙	⊙
⊕	⊕
+	+
^	^
≡	≡
#	#
3	3
⊕	⊕
+	+
⊕	⊕
⊙	⊙
⊕	⊕
+	+
⊕	⊕
⊙	⊙
⊕	⊕
+	+

الحروف الابجدية الفينيقية وهي تشبه الكتابة البربرية

ابناء
نوح

مصاريم أنجب القراخنة . .

وفلسطين أنجب الفلسطينيين القدماء .

وكتعان أنجب البربر .

وكلمة بربر جاءت من الجذ الأكبر بربر بن غلا بن مازيغ بن كتعان بن

نوح .

وجاء البربر في هجرة من الشام إلى شمال أفريقيا ثلاثة آلاف سنة قبل

المسيح أي قبل التاريخ .

وكان الرجل منهم يسكنون الخيام من الشعر والوبر وبعض الذين استقروا

على الزراعة في الوديان كانوا ينحتون بيوتهم في الجبال وينقرون في الجبل

غرفات كاملة يرافقها وما زالت بعض هذه البيوت المنحوتة باقية في جبل

نقوسة وفي جنوب تونس وجبال الأوراس .

وكان دين البربر القديم هو أمون ومظاهره الشمس والقمر والكيش ذو

القرنين وكانوا يقدسون الحمامة والطاووس والقط والضفدعة والسلحفاة . .

وكانوا يعتقدون أن قتل هذه الحيوانات يصيبهم بالشلل والجنون والعاهات .

وما زالت عقيدة تحريم صيد الحمام باقية إلى الآن في أنحاء كثيرة من المغرب .

واعتقد البربر في الجن والأرواح التي تسكن البنايع الحارة .

وكانت الأم عندهم مقدسة وكانت تحكم على القبيلة وتسوس الرجال .

وكان الابن قديما يتسب لأمه لا لأبيه .

واستخدموا لغة منطوقة ومكتوبة هي اللغة البربرية . . واللغة المكتوبة سموها

« تيفيناغ » وهو نفس الاسم المستخدم في اللغة التارجية .

في كتاب العبر لابن خلدون يروي لنا ابن خلدون عن شجرة عائلة نوح وأولاده قائلا : ان نوح أنجب ثلاثة أبناء هم سام وحام ويافت .

أما فرع يافت فهو الذي جاء منه سكان شمال أفريقيا الذين استوطنوا هذا المكان من العالم قبل البربر وهم أجناس ما قبل التاريخ الذين يطلق عليهم الكروماجنون . ويقول عنهم ابن خلدون أنهم كانوا يعبدون الشمس والقمر والكيش والقرود والثور وكانوا يدفنون الميت في وضع جنيني لاعتقادهم بأنه سوف يبعث كميلاد الجنين من بطن الأرض .

أما فرع نوح الثاني « حام » فهو قد أعطانا ثلاثة أبناء هم مصاريم وفلسطين وكتعان . .

وترجمة كلمة تقيفناغ . الحروف المنزلة من عند الله .

وأكثر الكلمات البربرية تجددها في اللغة التارجية ينصها .

وحينما دخلت اللغة العربية مع الإسلام شرع البربر في بريرة الكلمات العربية بإضافة التاء إليها :

الدار	تدارت
الحانوت	تاحنوت
الغابة	الغابت
الجنة	الجننت

وهناك أمثلة شعبية بربرية تشبه في المعنى أمثلتنا العربية :

انفسى تشورداس - يلا في العضم في الكرشة

ويدهكلن يطاود - من صبر ظفر

اغرم وليتو ابني دهباس - الدنيا لم تبين في يوم

طيطس أنا وساعت - أبو عين فارغة . أبو عين جريئة

تالويت سوزاف الابلاسيقنطارن - الشفاء بالدرهم والمرض بالقنطار .

وقد أقام البربر دولة بربرية كبرى كانت تشمل ليبيا والمغرب وموريتانيا . وحفظ لنا التاريخ أسماء ملوك عظام أمثال صفاقس ومصنيا ويوغورطة ويوبا .

وقد غزا الرومان الدولة البربرية وأسروا ملوكها وساقوهم مكبلين بالحديد في شوارع روما وجندوا ألوف البربر في جيوشهم بالسخرة .

ويروى لنا التاريخ المعارك بين يوليوس قيصر ويوبا .

ونزقت الدولة البربرية . ولكن ظلت المقاومة تندلع من برابرة الجبل والثورات تتوالى ضد حكم روما .

ويروى لنا التاريخ أن أحد الأباطرة الرومان سيموس سافاروس كان من أصل بربري وأنه أنصف البربر وسن القوانين بمساواتهم بالرومان في عهده .

وما زال تمثال سيموس سافاروس قائماً في أحد ميادين طرابلس إلى الآن .

وقد تعانقت الديانات البربرية القديمة مع الديانات الرومانية ، فكلها كانت ديانات وثنية .

وحينما جاءت المسيحية كان البربر أسرع من الرومان اعتناقاً لها ، فقد وجدوا فيها خلاصاً وأملأ .

وفي عهد الامبراطور صوكليسيان أحرق وقتل الآفا من شهداء البربر المسيحيين .

وحينما دخلت روما المسيحية . . أنشأ اثنان من القسس البرابرة مذهباً مسيحياً خاصاً اسمه الدونسية . واعتنق الكثير من البربر اليهودية نكابة في الرومان . .

ويروى لنا التاريخ سقوط الحكم الروماني على يد قبائل الوندال (قبائل جرمانية غازية مثل النصار) .

وبعد موجة غزو الوندال تأتي موجة الغزو البيزنطي .

وفي سنة ٦٤٨ وفي حكم عثمان بن عفان يدخل القائد المسلم عبد الله بن سعد على رأس جيش من عشرين ألفاً ليحارب مائة وعشرون ألفاً من البربر بقيادة جرجير البربري وينتصر عليه ويقتله ويدخل الإسلام لأول مرة إلى البربر .

الكلمة العربية	الكلمة البربرية
الحب	غاس
الكراهية	اكراه
الفرح	اسلان
الوردة	تورديت
الشجرة	تشجريت
الطفل	نعوش
المرأة	تقطوط
الرجل	أرجاز
الفتاة	تعذبت
السحاب	اييلم
الماء	أسن
النار	تقاوت
اللبن	أغى
العنب	زورين
البن	المطكن
الزيتون	أزموور
الخبز	غرون
القمح	يردن
الشعير	طعزين
الذرة	اللى
البرسيم	الصفصاء
حصان	اجمار
جمل	القم
ذئب	أوشن
الأسد	وار

ولا يبقى أثر لهذا الطوفان من الغزو الروماني والوندالي والبيزنطي... لا نجد أثرا من
وتنة أو مسيحية أو لغة رومانية أو جرمانية أو بيزنطية برغم سنوات من حكم السيوف...
ويفتح البرابرة أذرعهم للفرقة الجدة لغة ودينا ليصبح الإسلام هو الدين الوحيد والعربية
هي لغة الشمال الأفريق كله.

ونسمع الآن في جبل نفوسة، في مولد النبي، البربر ينشدون المدائح النبوية
المؤثرة بلغتهم البربرية:

باتا عرفت تلقيس... اسن مكة استوفعتت أشركن
عنتجال الدين أنريس... ييوض الدباغ سيضغا عن
ومضناها:

ما أشد ما لقي النبي من عذاب
من مكة وطنه أخرجه المشركون
ومن أجل دين ربه
رجموه بالأحجار حتى نزل دما

كلمة
الله
في
الصحراء

وبواسطة السنوسية صارت نواحي بحيرة تشاد مركزاً إسلامياً هاماً في وسط أفريقيا .

ويقدر المؤرخ دوفرييه أتباع السنوسية في عام ١٨٧٣ بحوالى ثلاثة ملايين . ويقول هاملتون إن السنوسى أنشئ أكبر أخوة دينية في أفريقيا امتدت فروعها من مراكنش إلى الحجاز .

فما هي الدعوة السنوسية ؟

كان ابن السنوسى يرفع شعاراً واحداً هو إعلاء كلمة الحق :

تنبيه الغافل وتعلم الجاهل وترشد الضال .

وكانت وسائله هي التقرب الى الله بالعلم والقرآن والعمل الصالح والكفاح واتباع الزهد وقراءة التسابيع والذكر حتى يصل بالمريد إلى درجة التورانية والوجد .

ولكنه لم يكن صوفياً منقطعاً ، وإنما كان مبشراً له رؤية اجتماعية . وفي ذهنه نظام مثالي عاش يخطط من أجله .

كان يحلم بإعادة بناء العالم الإسلامى على صورة جديدة .

ومن أجل هذا الحلم أنشأ نظام الزوايا .

وفي أواخر عصره كانت هناك ١٢٦ زاوية منها سبع عشرة في مصر وواحدة في استنبول واثنتان في الحجاز وست وستون في طرابلس وبرقة وعشر في تونس وخمس في المغرب واثنتا عشرة في تونس وخمس في المغرب واثنتا عشرة في السودان الأفريقى .

الصحراء كانت دائماً محباً عظيماً للحزبية والحركات التحريرية وأوكان للتوار والمفكرين ، احتضنوا فيها أفكارهم حضانة طويلة قبل أن تفرخ زوايع غيرت وجه الأمة العربية .

وكانت جميع هذه الحركات التحريرية دينية .

السنوسية في الشمال الأفريق والمهدية في السودان .

في برقة وواحة الجغبوب والكفرة وغدامس كان ابن السنوسى ينتقل لينشر دعوته بين البدو والبربر والطوارق وقبائل التبو وأولاد سليلان والمجابهة . وأكثر من هذا كان السنوسية يسترون العبيد والأرقاء صفاراً من السودان ويربونهم في جغبوب وغدامس حتى إذا بلغوا أشدهم وأكملوا تحصيل العلوم الدينية أعتقوهم وسمحوهم إلى أطراف السودان لنشر الدعوة بين أبناء جنتهم .

كل زاوية مبنية على مكان مرتفع حصين لتكون كالقلعة.

وبكل زاوية مسجد ومدرسة ومكتبة وحدائق وأراض موقوفة.

والزاوية ملكية عامة للنظام نفسه هي والأراضي الموقوفة عليها. . وفائض غلات الأراضي إذا كان هناك فائض يرسل للمركز ليرسلها بدوره إلى الزوايا التي يديرها.

وكل فرد من أفراد القبائل يتبرع بحرات يوم وحضانة يوم ودراس يوم في أرض الزاوية، وذلك لتسهيل المعمران دون نفقة.

وكانت الزاوية بمثابة استراحة للقوافل ومركز تجاري ومركز اجتماعي ومحكمة ومصرف وبيت الضيافة وملجأ للفقراء ومدرسة للقرآن وحرم آمن ومدافن وساحة للتدريب اليومي على الرماية وإطلاق النار.

وتجري المسابقات وتعطى الجوائز لأهم الرماة.

وكان حفر الآبار وبناء الصهاريج واستصلاح الأرض البور واجب كل زاوية في المكان الذي تقام فيه.

وكان يوم الخميس من كل أسبوع مخصصا عندهم للشغل بالأيدي. فيتركون الدروس في ذلك اليوم ويستغلون بالتجارة والحداة وغزل الصوف وفلح الأرض، لا تجد منهم إلا من يكد ويكدح وعلى رأسهم الشيخ السنوسي نفسه.

ولكل زاوية رئيس هو شيخ الزاوية، ومجلس يضم وكيل الزاوية وشيخ القبائل وأعيان المنطقة.

ومن شيوخ الزوايا جميعهم يتألف مجلس أعلى يرأسه السنوسي.

وهو نوع من التنظيم الهرمي في أسفله قاعدة من الأتباع والمريدين، يليهم إلى أعلى شيوخ القبائل ثم شيوخ الزوايا ثم الشيخ السنوسي.

ويجتمع المجلس الأعلى للنظر في سير الحركة مرة كل سنة.

واتخذ النظام من برقة مركزاً للدعوة.

ومن برقة اتسع نفوذ السنوسية ودخلت صحراء جزيرة العرب حيث اعتنقها عدد من القبائل كبنى الحارث وبنى حرب كما انتشرت بواسطة الحجاج في اليمن. . وبنيت الزوايا في المدينة والطائف والحمراء وينبع وجدة.

كانت السنوسية دولة داخل دولة.

وكان السنوسي يحلم بإعادة بناء العالم الإسلامي وتوحيده بتكاثف هذه الخلايا حتى تنبع الأمة العربية في داخل هذا الشكل التنظيمي الجديد من الاشتراكية الإسلامية.

ولكن الاستعمار الإيطالي الزاحف من الشمال والاستعمار الفرنسي الزاحف من الجنوب لم يهل هذه الحركة حتى توفى عمرها. . وما لبث أن أطبق عليها بكلاية الحديد والنار.

وفي لحظة وجدت السنوسية نفسها في موقف الدفاع.

واتطلق الرصاص من عشرين الزوايا في أعماق الصحراء.

يقول دوفريه إن السنوسية هي المسؤولة عن جميع أعمال المقاومة التي قامت ضد فرنسا في الجزائر وأنها السبب في الثورات المختلفة التي قامت ضد فرنسا كثورة محمد بن عبد الله في تلمسان وعصيان محمد بن تכול في الظهرة.

وفي سنة ١٨٩٥ كان علم المقاومة للاستعمار الفرنسي في الجنوب، في يد

السنوسية وحدهم .

وكان محمد البرائى يجمع الجيوش من الطوارق والبدو والبربر لمقاومة الزحف الفرنسى .

وكانت الأموال والأسلحة تتدفق من التلاميذ والمريدين .

وفى خطاب مرسى من أحد تلاميذ السنوسى إلى مدير غدامس التركى يكتب التلميذ :

« وقد وقع القتال بيننا بالبارود والسيوف حتى كسرناهم كسرة عظيمة وقتلنا منهم نحو ثلاثمائة وستة وثمانين رجلاً وغنمنا من الخيل كثيراً والبنادق بلا عدد والحزنة والإبل والأخبية والحمد لله على ذلك وبركة شيخنا معنا . »

وكانت من تقاليد الطريقة السنوسية مناولة السبحة والسيوف للمريد حينما يتم دراسته ، ويكون ذلك بأن يلبسه الشيخ الجرة أو الخرقة ، وبعد أيام يتاوله السبحة ويلبسه السيوف ويأمره بالصلاة بهذا الزى .

وفى أورده المؤرخ أحمد زاده :

« إنه من الواجب على كل فرد من السنوسية مادام قادراً وغير عاجز أن يكون مستعداً للطوارئ منهيئاً للحرب منتظراً للأمر منفذاً له بكامل طاعته . »

وما يروى أن رشيد باشا التركى أرسل جواسيسه إلى إحدى الزوايا ، وسأل الجاسوس أحد الاخوان ، وهو محمد البكرى ، عما إذا كان بالزاوية أسلحة ، فأجاب البكرى نعم لدينا مخازن من الأسلحة ، ثم قاده إلى أحد مخازن الكتب وفتحها له .

وقد استمرت مقاومة السنوسية للفرنسيين عشر سنوات .

قلت له : كيف تجد الكفاية فى هذه الأعشاب ؟ .

قال لى : كف يدك عن الأذى ، وطهر لسانك عن الغيبة ، وافتح قلبك للحب يجعل لك الله فى كل عود أخضر من هذه العبدان غذاء كاملاً .

سألته أن يعطى . .

فنظر إلى فى حياء وغمغم :

قال الله للمسيح : « يا عيسى عظم نفسك فإن اتعظت فعظم الناس وإلا فاستح منى . » وأنا لم أتعظ بعد لأعظك .

فقلت له : إذن تمنحنى بعض كلمات تكون زادى على الطريق

فقال وهو يرسل نظراته إلى الأفق البعيد :

أصرف كل اهتمامك إلى العلم ، فإن الله لا يعيد إلا بالعلم .

لا تشتغل بطلب الدنيا ، فن يشتغل بطلب الدنيا يبتلى فيها بالذل .

إذا خفت الله خاف منك كل شيء .

احذر صحبة النساء اتقاء على إيمان قلبك .

الاستئناس بالناس من علامة الإفلاس وفراغ العقل وهذا شأن من تراهم على المقاهى . . فلا شيء يؤتنس به إلا الحضرة الإلهية والخلوة مع الرحمن .

من لازم الناس أصبح محصوراً فى محيطاتهم وفى هيكل ذاته .

من دعا لظالم بطول العمر أو البقاء فقد دعا إلى معصية .

نقاء السريرة وصفاء القلوب وسلامة النيات ومحبة الخلق والخالق هى رأس العبادة والسعى وراء الشهرة فسادها .

وفي سنة ١٩٠٢ سقطت زاوية بير العلاف في أيدي الجيش الفرنسي الذي هدمها وبني مكانها قلعة حصينة .

وفي سنة ١٩١١ تحولت السنوسية إلى الشمال لمقاومة الاستعمار الإيطالي . واستطاعت أن تقاوم الإيطاليين عشرين سنة .

ولكن الصلب والبارود والصناعة الغربية والعلم الغربي استطاع أن يهزم بدو الصحراء .

وفي كل صدام بين الشرق والغرب كانت الصناعة الغربية تحسم المعركة .

حريّة

الرجل

الصالح

أكثر من صحبة الصالحين فإن فيهم الشفعاء .

قلت له :

- ومن هم الصالحون ؟

قال :

- لباسهم ما ستر وطعامهم ما حضر .. أبرار أخقياء ، أتقياء إذا غابوا لم يفتقدوا وإذا حضروا لم يعرفوا .. تحابوا في روح الله على غير أموال ولا أنساب .. يتعارفون في الله ويحبون في الله ويكرهون في الله . يقول الله عنهم يوم القيامة : أين المتحابون بجلالي .. اليوم أظلمهم في ظلي يوم لا ظل إلا ظلي .

قلت له : هل لهم وجود في هذه الأيام ؟

قال :

- خلت الديار ، وباد القوم ، وارتحل أرباب السهر ، وبق أهل النوم ، واستبدل الزمان بأكل الشهوات أهل الصوم .. لم يبق إلا أقزام مهازيل خثالة كخثالة الشعير أمثالنا لا يبالي الله بهم .

قلت له : ما رأيك في أهل هذا الزمان ؟

قال في حسرة :

- اغترقوا بالله وتركوا أمره ، وقرءوا القرآن ولم يعملوا به وقالوا تحب الرسول ولم يتبعوا سنته ، وقالوا تحب الجنة وتركوا طريقها . وقالوا نكره النار وتسابقوا إليها ، وقالوا إبليس لنا عدو وأطاعوه ، ودفنوا أمواتهم ولم يعتبروا بهم ، واشتغلوا بعبود إخوانهم ونسوا عيوبهم ، وجمعوا المال ونسوا الحساب ، وبنوا القصور ونسوا القبور .

هو رجل مغرور منقطع للعبادة في جيل .

لم يشأ أن يذكر اسمه ولا مكانه ..

هو عبد الله في أرض الله .

يلبس بردا من الصوف ويجلس على الأرض بغير قراش ويتوسد الحجر .. وما رأيت معه إلا بعض كتب مخطوطة .. وما رأيته ضاحكاً .. وما رأيته رافعاً بصره في طريق .

يكسب حياته من غزل الصوف .

ولا يأكل إلا بضغ ثمرات فإذا ارتحل فأعشاب الطريق زاده .. وهو مورد الوجه يفيض صحة وإشراقاً .

لقد كنا في زماننا نعلم بالحج إلى مكة والقدس والموت بها .
وأنتم جاءتكم فرصة الشهادة إلى بابكم بالقدس فإذا فعلتم ؟
ولم أجد كلمة أجيبه بها .

أما هو فراح يبكى ويغمغم بين دموعه .

والله لولا عباد ركع وصبية رضع وبهائم رتع لصب عليكم العذاب صبا .
وحينا تركته كان قد بدأ يتشد :

وشمس على المعنى مطالع أفقها
ففرها فينا ومشرقها منا

وحينا كانت نغمات أنشاده تذوب في الهواء كانت ذاكرتي تعود بي إلى لقائي
بالتصوف الهندي براهما وأجيسوارا الذي رويت حديثه في كتابي الخروج من
النايوت .. ولا أدري لماذا أحسست أني أمام نفس الرجل ..

كان كلاهما يقول كلاما واحدا ، ويتكلم نفس اللغة وكأنما يجلسان على مائدة
واحدة ويقرآن من نفس الكتاب .

وتذكرت حديثي مع التصوف المغربي عبد العزيز بن عبد الله وكيف كان
يقول لي إن التصوف الهندي هو الذي أخذ منا ولم نأخذ منه وإن تجار بابل
وفارس وعلماءها كانوا ينقلون دياناتنا الشرقية إلى الهند من أيام إبراهيم الخليل
بدليل دخول الكلمات العربية في الكلمات السنسكريتية :

سوترا .. الصورة

جو .. هو

متنا .. من أنت

بوداتا .. ذات بودا

احسين .. احسان

اسرافا .. اسراف

ماهابانا .. معاينة

كارما .. كرامة

نيرافانا .. نور الفنا .

لقد كنا نعطي دائما .

ولقد أخذ منا الكل .

واحتوت دياناتنا على الحق كله .

والتصوف الإسلامي احتوى بين دفتيه على كل الطرائق بما فيها البوذية
واليوجا .

كنت أسير مستغرقاً في التفكير

وكان انشاد الفقير المغربي ما زال يرن في أذني :

وشمس على المعنى مطالع أفقها
ففرها فينا ومشرقها منا

نعم .. إن الشمس تغرب فينا الآن ..

فتي يكون مشرقها منا ؟ ..